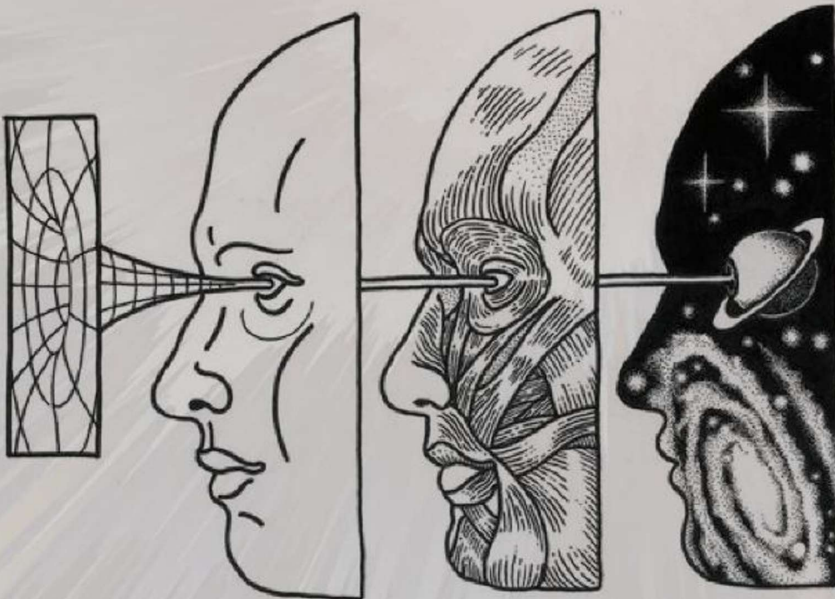


د. ماهر جميل بايزيد

هندسة الوعي:

بين الانحدار والبناء



هندسة الوعي
بين
الانحدار والبناء

الكتاب: هندسة الوعي بين الانحدار والبناء

التأليف: د. ماهر جميل بايزيد

الحقوق جميعها محفوظة للمؤلف

موافقة وزارة الإعلام السورية للسماح بالطباعة:

رقم 124339 بتاريخ 2026/6/15 م

موافقة وزارة الإعلام السورية للسماح بالتداول:

رقم 124339 بتاريخ 2026/6/22 م

إيداع المكتبة الوطنية – سوريا 2026 بتاريخ 2026/6/22 م

الرقم الدولي للكتاب ISBN: 978-9933-9456-0-2

البريد الإلكتروني: maherjameel1@gmail.com

هندسة الوعي
بين
الانحدار والبناء

الدكتور
ماهر جميل بايزيد

2026

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخَاتَمِ
النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ... أَمَّا
بَعْدُ:

بَدَأْتُ الْكِتَابَةَ، وَصَدَرَ لِي أَوَّلُ كِتَابٍ عَامَ 2011 م بِعُنْوَانِ (لِنَبْنِ مَعًا مَنْظُومَتَنَا
الْأَخْلَاقِيَّةَ). وَمُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، جَمِيعُ مَا كَتَبْتُ يَدُورُ فِي فَلَكَ الْعَقْلِ وَالطِّبَاعِ وَالْإِرَادَةِ
الْعُقْلِيَّةِ. وَهَا هُوَ كِتَابِي (هَنْدَسَةُ الْوَعْيِ بَيْنَ الْإِنْجِدَارِ وَالْبِنَاءِ)، أَقْدِمُهُ لِجِيلِ الشَّبَابِ،
لَعَلَّ صَوْتِي يَصِلُ إِلَيْهِمْ مَعَ كَامِلِ الْمَحَبَّةِ لَهُمْ.

وَاسْمَحُوا لِي أَنْ أُهْدِيَ الْعَمَلَ الْمُتَوَاضِعَ لِسَيِّدِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مُعَلِّمِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ
الْخَيْرَ فِيهَا وَسَيَسْتَمِرُّ فِيهَا إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ عِزَّ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا. ثُمَّ أُهْدِيَ لِمَنْ
رَبَّانِي صَغِيرًا، وَأَسَدِي لِي النُّصْحَ وَالْإِرْشَادَ كَبِيرًا:
وَالِدَيَّ... رَحِمَهُمَا اللَّهُ وَجَزَاهُمَا عَنِّي خَيْرَ الْجَزَاءِ.

د. ماهر جميل بايزيد

م 2026/6/6

المُقَدِّمَةُ

مُنْذَرٌ أَنْ خُلِقَ الْإِنْسَانُ، أُعْطِيَ لَهُ قِيَمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَشُرِّفَ تَشْرِيفًا كَبِيرًا، وَهَيَّبَتْ الْأَرْضُ لِاسْتِقْبَالِهِ.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

وفضَّله وميَّزه عن بقية الكائنات: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

هذا الإنسان يحملُ ثنائيةً متناقضةً: أصلٌ تُرابيٌّ أرضيٌّ، وأصلٌ رُوحِيٌّ غُلُوِيٌّ. وهذه الثنائيةُ لا يمكنُ أن تستقرَّ لولا وجودُ ضابطٍ مشتركٍ بينهما، وهو العقلُ. به تميَّزَ الإنسانُ عن بقية المخلوقات، ليميَّزَ بين الحقِّ والباطلِ، وليكونَ قادرًا على حملِ أمانةِ التكليفِ والإعمارِ والاستخلافِ في الأرضِ، ولمعرفةِ اللهِ ﷻ ليعبدوه حقَّ العبادةِ. إنَّها صورةٌ من صور الإعزازِ والتكريمِ لهذا الإنسانِ.

ميَّزَهُ بالعقلِ والعلمِ والنطقِ، وتسخيرِ جميعِ ما في الكونِ له. إنَّها معركةٌ بين الحقِّ والباطلِ، متصلةٌ إلى قيامِ الساعةِ.

تعالوا معًا نقرأ بعضَ المصطلحاتِ عن العقلِ وأقسامِهِ:

حقيقةُ العقلِ: أنه الوسيلةُ الأساسيةُ لمعرفةِ اللهِ ﷻ، بعدَ أَنْ يُدْرَكَ ويستوعبَ منهجَ اللهِ بالعلمِ والمعرفةِ، وهي أداةُ العقلِ، فيحرسه من الانفلاتِ.

فالعقلُ: هو وسيلةٌ ومَلَكَةٌ وصفةٌ إنسانيةٌ، تسعى لإصابةِ الحقِّ ومعرفةِته، وفق ضوابطٍ وأحكامِ شرعِ اللهِ، لتحقيقِ الغايةِ الأولى من استخلافِ الإنسانِ في الأرضِ، لحملِ أمانةِ التكليفِ، وهو دورُ العقلِ الأسمى.

فالعقل: مَلَكَةٌ غريزيةٌ نورانيةٌ معرفيةٌ فوقَ المحسوساتِ، تقومُ بإجراءِ سلوكيِّ فعليِّ، احترازيِّ، رقابيِّ، قمعيِّ، ناهٍ ضابطٍ، يمنعُ المحظورَ ويضبطُه بقوةٍ تمنعه من الانفلاتِ، مما تدعو إليه النفسُ البشريةُ لركوبِ الهوى وحبِّ الشهواتِ الشيطانيةِ.

العقلُ عقْلان:

الأولُ: العقلُ الإدراكيُّ - ويُسمَّى العقلَ المسموعَ - ومحلُّه في رأسِ الإنسانِ، ونوافذهُ وبواباتهُ الإدراكيةُ هي الحواسُ الخمسةُ، التي تستقبلُ المعلوماتَ والعلمَ، وتُحلِّلُها، وتُوضَعُ في الذاكرةِ بخيالاتٍ وصوَرٍ ذهنيةٍ، ثم تُشكِّلُ الأفكارَ والمفاهيمَ بعد أن تُستوعَبَ وتُوعَى.

الثاني: العقلُ الضابطُ الواعظُ للنفسِ البشريةِ - هو مصدرُ الضبطِ والتوجيهِ والقيادةِ - محلُّه قلبُ الإنسانِ، ويُسمَّى العقلَ الطبعيِّ، يزدادُ تألُّقًا بقوةِ الإيمانِ، وهو وعاءُ جوهرِ النفسِ البشريةِ.

الباب الأول العقل المسموع

الفصل الأول

بَوَابُ الْعَقْلِ الْإِدْرَاكِيِّ

ونفقتنا أن بوابات العقل الإدراكية هي الحواس الخمسة، بها يتم استقبال المعلومات والمعارف والعلوم، وتقوم بتحليلها. فمثلاً: المعلومات السمعية - الصوت- هو عبارة عن موجات هوائية، يتحوّل إلى موجات صوتية، وبدخوله إلى مجرى السمع يهتّر غشاء الطبل، فتصل الاهتزازات إلى العظيّمات السمعية (المطرقة والسندان والركاب)، ثم إلى الغشاء الذي يغطي القوقعة (الأذن الداخلية)، فيها سائل يهتّر باهتزاز عظمة الركاب، لتتحرك الخلايا الشعرية، لتولّد سيالة عصبية تنتقل عبر العصب السمعي، لتظهر أثر هذه الموجات الكهرومغناطيسية في محلّل السمع الموجود بالدماغ في القصر الصدغي، لتقوم بعملية تحليل أثر هذه الموجات، وهي بالحقيقة الكلمات التي وصلت إلينا.

ملاحظة: إن أذن الإنسان لا تسمع الصوت إذا كان تردده أقل من 20 ديسبل - وهو مجال همس - وأعلى من 150 ديسبل ينفجر غشاء الطبل ويفقد السمع. هنا تبدأ مرحلة الفهم والاستيعاب العقلي، وهي مرتبطة بالوعي العقلي: الفهم هو حُسْنُ تصوّر المعنى، واستعدادُ الذهن للاستنباط.

يرى أكثرُ الباحثين أن عملية الفهم تتكوّن من ثلاثة جوانب هي:

1- إدراك الكلام (أي تمييز أصوات الكلام). وهو اللفظ، أي البنية اللغوية نفسها.

2- فهم التراكيب اللغوية. وهو ما يتصوره السامع من هذه التراكيب اللغوية، فلا يعرف الإنسان الاسم إلا إذا عُرضَ عليه المسمّى، وعرّف ذاته. فمعرفة الأسماء لا تحصل إلا بمعرفة المسمّى وحصول صورته - في العقل - ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، أي صورَ المسمّيات في ذواتها، وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [يوسف: 40]، أي أنّ الأسماء التي تذكرونها ليس لها مسمّيات، وإنما هي أسماء على غير مسمّى، وبدون معنى.

3- فهم الدلالة الذي يُعنى بفهم المعنى من اللغة، وهي آليّة هامة يدخل فيها معنى التدبّر والاستبصار والرؤية العقلية ودلالاتها، حيث قيّدت المعنى، وحدّدت المراد، فجمعت بين اللفظ والمعنى... فسبحان من علّم آدم الأسماء كلّها. وهنا ندخل مرحلة الاستيعاب⁽¹⁾ ووعي ما فهمناه.

إذا، يعتمدُ الفهم على فهم المعنى للمسمّيات، والتي تكون الأساس لإعطاء معلومات لبناء الصور الذهنية السمعية. وعليه، فإنّ عملية الفهم هي فهم المعنى من الكلمة، ومجموعة الكلمات تُعطي معلومة، ومجموعة المعلومات يُستفاد منها لبناء الصور الذهنية. فاللغة هي الوسيلة الأساسية ومفتاح لفهم العلوم والمعرفة؛ لأنّ الكلام هو وسيلة الإبانة عمّا في النفس من معارف ومفاهيم، وتأثير الكلمات على النفس البشرية عظيم.

(1) د. جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة عدد (145)، ص 80 - 84 بتصرف.

الفصل الثاني

الوعي العقلي

هو شعور الإنسان بنفسه إذا كان في حالة يقظة الوعي أو فقدان الوعي. ففي يقظة الوعي: هي إدراك ما وصل من معلومات عبر البوابات الإدراكية، بعد أن تفهم معاني الأسماء، وتفهم المعنى من الكلمة، وتستوعب تدبراً وتبصراً، تحفظ هذه المعلومات والمشاهدات في وعي الإنسان كآثر؛ لأنَّ الوعي يُقاسُ بِأثر ما أدركه من معلومات، فنقهم دلالاته. يُقال: (وَعَيْتُ الْحَدِيثَ وَعَيًّْا، أَي حَفِظْتُهُ وَتَدَبَّرْتُهُ)⁽¹⁾.

إنَّ بناءَ الوعي الذاتي ليس بكثرة إدراك العلوم والمعارف فقط، بل بعمق التركيز فيما يفهم؛ لأنَّ النصَّ لا يُنطقُ، ولا حياة فيه، إلا وهو ذو معنى، والذي يستنطقه هو الفهم الإنساني بفهم دلالاته. عندها تكون مرحلة الاستيعاب واضحة، حيث يتلقف هذه المعلومات لبناء صور ذهنية، بعد أن يعيها ويستوعبها، فيحفظها لحين استرجاعها.

أرشفة هذه المعلومات والمعارف والأفكار تتم في الذاكرة الدماغية المُختصة:

النوع الأول: الذاكرة قصيرة الأمد

أي أنَّ الذاكرة قصيرة الأمد لا تحتفظ بالمعلومات إلا لفترة محدّدة. مثال: أرقام التليفونات، بعض اللقاءات، الأحاديث الجانبية، بعض المشاهدات العابرة، معلومات عادية روتينية متكررة، أحداث إخبارية عادية. منها ما هو موجود في مركز الحصين في الدماغ. قُدِّرَتْ مساحتها بحوالي 1000 تيرابايت – أي مليون جيجابايت – وهذا ما يعادل 3 ملايين ساعة مشاهدة بالفيديو.

(1) المقرئ: معجم المصباح المنير، ص (418).

حيث يقوم الوعي الإدراكي العقلي بعملية أرشفة المعلومات والأفكار بعد استيعابها، وتُحفظ المعلومات وتُعتبر مهمةً، فتوضع في الذاكرة طويلة الأمد، وتُستدعى من الوعي الذاتي عند الطلب والحاجة.

النوع الثاني: الذاكرة طويلة الأمد

تُسمى: الوعي الطبيعي، ويُسمونه هم اللاوعي، الموجود في القلب، وفيه الذاكرة طويلة الأمد. حيث يتم حفظ المعلومات والمفاهيم، وأرشفتها في القلب. هذه المعلومات منها: المعتقد الإيماني، والطباغ والسلوكيات، وعلوم الدين، والمشاعر. تنحفر في القلب وتستقر فيه، ومن الصعب إزالتها. تُسمى "المعتقد"، وهو على أنواع كثيرة. وهو ما استوعبه الوعي وأرشفه من معلومات ومفاهيم ذات أهمية وقيمة عند صاحبها. فمنهم من تكون مفاهيمه الحادية شريكة، فتحوّل تدريجياً لتستقر في القلب وتنحفر فيه. ومنهم من يعي مفاهيم ومعتقدات اللهو والغفلة وحب الهوى والشهوات المأجنة، يعي ويدرك كل هذا وهو في غاية السعادة، فتترسخ هذه الأفكار والمفاهيم في ذاكرته طويلة الأمد المستقرة في القلب، لتشكل معتقداً له يدافع عنه ويستमित من أجله!؟

منهم من لديه أفكار ومفاهيم استراتيجيّة في مجالات شتى، يحتفظ بها في الذاكرة طويلة الأمد، وتصبح معتقداً له.

لكنّ المؤمن برّبهِ الذي أوعى الإيمان، فإنّ معتقده يُضيء نوراً بإيمانه، فيتسخ في القلب، في الذاكرة طويلة الأمد، يُنادى بمعتقده الذي أوعاه واستوعبه وأرشفه في قلبه، يُدافع عنه، ويستमित من أجله؛ لأنّ ما أوعاه تركّز فيه وتصلّب. وعليه، فإنّ المؤمن برّبهِ بعد أن عرفه وآمن به وتركّز في وعاء قلبه، أصبح معتقداً ثابتاً لا يتزحزح لو أرادوا قتله.

ومنهم من يؤمن ساعةً ويكفر ساعةً...! هذا ما أوعاه القلبُ معتقدًا لصاحبه
المُتَلَوْنَ كالحرباءِ. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ [الإنشقاق: 23].

منهم من يملك ثقافةً المجادلة والنكران والاستعلاء والاستكبار، طبعًا وسلوكًا
وثقافةً... هذا ما استوعبوه وتركز في قلوبهم معتقدًا راسخًا.

نعوذ للمعتقدِ الإيماني الذي يسكن القلبَ السليم، سليمًا من الغلِّ والحسد، سليمًا
من الحقدِ والأنانيَّة، سليمًا من الجدلِ والمراءِ والأنانيَّة. فمن يملك الإيمانَ يملكُ
الطباعَ والسلوكياتِ الحسنة، فينادى بها لنظافةِ قلبه من كلِّ ضغينةٍ وعدوانٍ.

هم يُسمونه تراكمَ القيمِ الثقافيَّة المُكتسبة، تُحفظُ في اللاوعي عندهم، ونحنُ نُسميه
المعتقدَ الإيمانيَّ النورانيَّ الذي أودعه اللهُ ﷻ، فاستوعبه وعينا وفهمناه، واستقرَّ في
قلوبنا.

إنَّ يقظةَ الوعي الذاتيِّ تختلفُ من شخصٍ لآخر، وذلك بمقياس تجاربه واكتسابه
للعلوم. فيكون أثرها بعد أن تُفهم وتُستوعب وتعي، عندها تتسكَّلُ قاعدةُ بياناتٍ
ومعلوماتٍ، تغيرُ منظومةَ وعيه: إمَّا اندحارًا، وإمَّا بناءً. عندها تظهرُ معالمُ
شخصيَّته... ذاته.

فإن كانَ وعيه يتَّجهُ للبناءِ لما يُحبُّ اللهُ ورسولُهُ، فإنَّه يفهمُ ويعي الأحداثَ وما
حوَّلَهُ، فتتجلى شخصيَّةُ الإنسانِ بيقظةٍ وعيه وفطنته لعمليةِ الفهمِ ولْفهمِ ما حوَّلَهُ،
فيكونُ حاضرَ القلبِ، ليتبصَّرَ العاقلُ فيعيِّ القضايا والأحداثَ، وتنشأُ لديه تصوُّراتٌ
عميقةٌ تُحوِّلهُ أن يفهمَ فيرى ما لا يراه الآخرُ، ويفهمَ ما لا يفهمه الآخرُ. فتظهرُ لديه
إمكاناتٌ خلاقَةٌ ونظرةٌ ثاقبةٌ لهذه المفاهيمِ، فيطرحُ الأفكارَ النيِّرةَ للعملِ والقولِ
الصالحِ، فيربحُ خيرَ الدنيا والآخرةِ، شرطُ أن تكونَ نيئتهُ خالصةً لله ﷻ. فيكونُ
مبادرًا لعملِ الخيرِ، وناهياً عن المنكرِ، يُرسِّخُ خاصيَّةَ الأُمَّةِ بأنَّها: ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 110]. فيكونُ

فاعلاً ومؤثراً في ذاته وفي مجتمعه؛ لأنه تحكّم وعقل تصرفاته، فهو من أهل الرشد. ولذلك سُمّي حُسن التصرف عقلاً؛ لأنّ الإنسان عقل تصرفه فيما ينفعه، والرشد هو المهتدي إلى أحسن الأمور في القول والعمل.

فَسَتَّانَ بَيْنَ مَنْ أَوْعَى قَلْبُهُ الْإِيمَانَ، فَكَانَ نَوْرًا يُضِيءُ عَقْلَهُ لِفِعْلِ الْخَيْرِ، وَالْآخَرَ يَمْلِكُ قَلْبًا مَنكُوسًا لَا يَعِي إِلَّا الشَّرَّ وَالْمُنْكَرَ، فَتَكُونُ ظُلْمَةً تَهْوِي بِالْعَقْلِ إِلَى الرَّدَى، إِضَافَةً إِلَى الْقَلْقِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَعَدِمِ الطَّمَأْنِينَةَ، وَعَدِمِ الْاسْتِقْرَارَ، وَسَبَبُهُ الْإِبْتِعَادُ عَنِ مَنَهِجِ اللَّهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124].

هما طريقان لا ثالث لهما، يُنْحَفِرَانِ فِي أَوْهَادِ الْقَلْبِ: إِمَّا الطَّرِيقُ السَّلِيمُ السَّالِكُ لِلْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ، فَيَبْدَأُ بِتَكْوِينِ وَعْيِ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ، مُتَمَسِّكًا بِأَعْظَمِ مَوْرُوثٍ فِي الْعَالَمِ: قُرْآنِ الْخَالِدِ، فِيهِ ذِكْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَالْأُمَّمِ السَّابِقَةِ وَتَارِيخُهَا؛ لِأَنَّ التَّارِيخَ ذَاكِرَةُ الْأُمَّةِ، وَوَعَاءُ قِيَمِهَا وَثَرَاتِهَا، وَأَسَاسُ شَخْصِيَّتِهَا.

فِدِرَاسَةُ التَّارِيخِ وَالْإِعْتِبَارُ مِنْ نَتَائِجِهِ وَعَاقِبَتِهِ يُسَاعِدُ عَلَى تَعْمِيقِ الْوَعْيِ الثَّقَافِيِّ وَالْمَعْرِفِيِّ لِلإِنْسَانِ. فَلَا يُمَرَّرُ وَعْيُهُ أَيَّ أَحْدَاثٍ إِلَّا وَعَاها وَفَهَمَ مَعْرَاها وَأَبْعَادَها وَنَتَائِجَها، عِنْدَها يَتَبَلَّوْرُ الْمُعْتَقِدُ فِي الْقَلْبِ.

هَذَا الْمُعْتَقِدُ هُوَ حَصِيلَةُ مَا أَوْعَاهُ الْإِنْسَانُ، يُسْمُوْنَهُ الْمُحْتَوَى الذَّاتِي الثَّقَافِيِّ لِلإِنْسَانِ أَوْ الْقِيَمِ الثَّقَافِيَّةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: 14-15]. لَكِنَّا نُسَمِّيهِ الْعَقِيدَةَ الْإِيمَانِيَّةَ، مَحْفُورَةً فِي الْقَلْبِ، وَمُؤَرَّشَةً فِي الْعَقْلِ الطَّبْعِيِّ الْوَاعِي.

الصِّنْفُ الْآخَرُ الَّذِي انْحَرَفَ وَعْيُهُمُ الْعَقْلِيُّ عَنِ الطَّرِيقِ، وَانزَلَقَ فِي مَتَاهَةِ الْهَوَى؛ لِإِبْعَادِهِمْ عَنِ النُّورِ، وَتَعَلُّقِهِمْ بِالْمَادِّيَّاتِ، فَأَيَّقَطَتْ فِيهِمْ نَوَازِعَ الْهَوَى وَدَوَافِعَ الشَّهَوَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ.

هو انفلات النفس من قيود الأوامر الإلهية، فكان من الجاهلين الغافلين عن ربه، فسرد هواه وضلّ ضلالاً بعيداً. وما حُبُّ الهوى إلا ميلُ النفس إلى ما تستلذُّه من الشهوات، والهوى هو ميلُ الطبع إلى ما يُلائمه. (1)

{فالنفس تهوى ابتداءً وتنتهي ما يضرُّها ولا ينفعها، فتسولُ لصاحبها حُبَّ الهوى. فكلُّما كان الإنسان ميّالاً لهوى النفس، كلُّما ابتعدَ عن التكاليف الشرعية، وكلُّما ابتعدَ عن الإيمان وعن وعي العقل.

فالإفراط في الهوى مذمومٌ عقلاً؛ لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، وينساق لهواه حتى يصبح معبوداً، فيضلُّه عن الصراط المستقيم. وهذه العقول لم تع مهمتها، فتصبح شاردة تائهة غافلة، فتتحدى النفس بهواها، فتسير بصاحبها إلى الهاوية. {أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الجاثية: 23].

فكان صاحب القلب المنكوس الأسود، وما كان سواده إلا بما حمل من معتقدات ومفاهيم أوعاها في قلبه، ووطن قلبه ألا يعي خيراً قط. قال عبيد: "الشرُّ أحبُّ ما أوعيت من زاد، ويحسب نفسه أنه الأوعى والأفهم" - والأصح أعمالاً، هم الأخسرون أعمالاً.

قال تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهم يُحْسِبُونَ صُنْعًا} [الكهف: 103-104].

فستنان بين الذي أوعى الإيمان والأخلاق، فازتقى وسماً، وبين من أوعى قلبه الهوى وحُبَّ المعاصي، فهوى (أي سقط) (2).

لهذا كان من أولويات مهام العقل التمييز بين البدائل وأخذ الأفضل. فمن كان من الصنف الأول: أعقل ما أوعاه، حلل الأمور والمُعْطَيَات، استنبط الحلول، ميّز

(1) علي بن محمد الجرجاني: في التصريفات، ص (320).

(2) د. ماهر جميل بايزيد: كتاب علم الطباع السلوكي وصراع الإرادات العقلية. بتصرف.

الصَّالِحِ مِنَ الضَّارِّ، وَمَيَّزَ الرَّاجِحَ مِنَ الْمَرْجُوحِ. فَكَانَتْ مُجَاهِدَةُ النَّفْسِ وَغَلَبَتْهَا عَلَى طِبَاعِهَا وَأَهْوَائِهَا.

هَذَا يَلْعَبُ الْعَقْلُ الضَّابِطُ الْوَاعِظُ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ دَوْرًا هَامًّا فِي التَّوْجِيهِ وَقَلْتَرَةِ الْمُدْخَلَاتِ الْآتِيَّةِ مِنَ الْبَوَابِ الْإِدْرَاكِيَّةِ، لِكَيْ يَقَوْمَ الْوَعْيُ بِعَمَلِهِ عَلَى أَحْسَنَ مَا يَرَامُ، بِعَمَلِيَّةٍ أَرْشَفَةَ الْمَعْلُومَاتِ وَوَضَعَهَا فِي الْأَمَاكِنِ الْمُخَصَّصَةِ لَهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 41-40].

الصِّنْفُ الثَّانِي: غَافِلٌ أَحْمَقٌ. وَهُوَ الَّذِي لَا زَبَرَ لَهُ، أَيْ لَا عَقْلَ لَهُ.

هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ تَشَيَّبَتْ عُقُولُهُمْ وَشَرَّدَتْ، فَانْحَرَفَتْ أَفْكَارُهُمْ وَوَعِيَتْهُمْ عَنِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ عَلَيْهَا. فَكُلُّ مَا أَوْعَوْهُ فِي قُلُوبِهِمْ عَقَائِدٌ فَاسِدَةٌ، وَحُبُّ الْهَوَىٰ وَالشَّهَوَاتِ. فَسَجِنَتْ مُعْتَقَدَاتُهُمْ وَعُقُولُهُمْ فِي قُلُوبِ سَوْدَاءٍ.

وَمِنْ مَسَاوِي الصِّنْفِ الثَّانِي أَنَّهُ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ أَنْوَاعًا مِنَ الْبَشَرِ: مِنْهُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ فِي لِحْظَةٍ يَتَلَوَّنُونَ كَالْحِرْبَاءِ لِكَثْرَةِ الْأَقْبَعَةِ الْمَزِيْفَةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُونَهَا. وَظَهَرَ مِنْهُمْ الْمُرَاؤُونَ وَالْمُجَادِلُونَ وَالْمَاكِرُونَ، الَّذِينَ يَرْتَدُّونَ لِبَاسِ التَّحَضُّرِ، وَأَنَّهُمْ قُرَّانِيُّونَ فَقَطُّ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالسُّنَّةِ. وَمَعَ هَذَا أَكْثَرُهُمْ يُرِيدُ أَنْ يُغَيِّرَ الْبُنْيَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِمَعَانِي وَمُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ، وَغَايَتُهُمْ بَثُّ الشُّكُوكِ وَالرِّيْبَةِ فِي أَبْنَاءِ أَهْلِ الْقُرْآنِ، لِيَصِلُوا إِلَى هَدْمِ النِّقَةِ فِيهِ، وَبِالتَّالِي هَدْمِ بُنْيَانِهِ. مَكْرُهُمْ فَاقَ الْخِيَالَ، وَلَكِنْ خَسَبُوا؛ لِأَنَّ مَا فِي قُلُوبِنَا مِنَ الْمُعْتَقَدِ الْإِيمَانِيِّ لَنْ يَنْزَحْزَحَ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَشْوِيشَ وَتَعْطِيلَ عُقُولِنَا وَتَشْوِيشَ وَعَيْنِنَا. لَكِنَّ اللَّهَ ﷻ بِالْمِرْصَادِ لَهُمْ.

الفصل الثالث

انهيار الوعي نتيجة انهيار الأخلاق

بن حالة الانحدار في المنظومة الأخلاقية تُفرز السلوك التافه، وأسبابه واضحة المعاليم:

- الابتعاد عن خالق السموات والأرض، عن شرعه ومنهجه، يُؤدّي إلى انهيار الوعي.
- حُب الدنيا والتفاخر فيها، فمن الناس من يعتقد أن الشهوة والهوى هي غايتهم ولذتهم الأولى.
- اختلال ميزان العدل يتأرجح لصالح المفسد والمنحل، يُؤدّي إلى ضياع الحقوق، وازدياد الظلم والجور لكل الناس.
- ضعف الهمة والإرادة لضعف العقول وشرودها، فيبدأ التأجيل والتسويف والمماطلة، فتختل الموازين النازمة للعلاقة بين الناس. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 46]
- لَكَ حُرِّيَّةُ الْاِخْتِيَارِ... لَكَ الْقَرَارُ... وَالْقَرَارُ قَرَارُكَ. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10]. هل تُريدُ الفوز؟ جاهد نفسك... أم تُريدُ الحُسرانَ المُبين؟ فاطلم واطع...
- أصعب الظلم ظلم النفس. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: 1]. عندما تُردادُ عمليّة الهدم والانحدار في عقولنا، وعينا، وأخلاقنا، وتتم زراعة الوهن والقلق والتشاؤم والخور في قلوبنا وعقولنا. روى الإمام أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "توثيك الأمم

أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى فَصْعَتِهَا". فَقَالَ قَائِلٌ: أَمِنْ قَلَّةِ نَحْنُ
يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: "بَلْ أَنْتُمْ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غَتَاءُ كَعْتَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ
صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ". فَقَالَ قَائِلٌ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ".⁽¹⁾

هَكَذَا انْحَدَرَتِ الْأَخْلَاقُ، وَارْتَفَعَتْ قِيَمَةُ السُّلُوكِيَّاتِ الَّتِي تَحْمِلُ طَاقَةَ سُلَيْبِيَّةٍ، وَالَّتِي
تَنْسَبْتُ فِي مَرَكَزِ الْمُعْتَقَدَاتِ، مِنْهَا: الْوَهْنُ، وَالتَّسَاوُمُ، وَالاِتِّكَالِيَّةُ عَلَى الْآخِرِ، وَفِقْدَانُ
الْمَهَابَةِ، وَحُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ.

تَعَالَوْا نَقْرَأْ بَعْضَ أَصْنَافِ هُوَلَاءِ: كَيْفَ انْحَدَرَ سُلُوكُهُمْ، وَأَخْلَافُهُمْ، فَاانْحَدَرَ
وَغِيهِمْ... أَصْبَحَ هَسًّا... يَعْتَسِقُ الْعَقْلَةَ... تَعَالَوْا نَقْرَأْ.

(1) رواه أبو داود في سننه.

الفصل الرابع

أحدار الوعى الأخلاقي في عصر التفاهة

عصر التفاهات هو عصر الانفتاح الإعلامي على مصراعيه، ثبت فيه المعلومة المغلوطة، والفكرة التافهة، والإعلان الساقط، والمقولات الكاذبة، والتفاهات المصطنعة، فتجد قبولاً واسعاً بحبٍ وقناعة كاملة. ويتقبلون وعيهم لهذه التفاهات.

فَعِنْدَمَا تَسْتَقْبِلُ الْبَوَابَاتِ الْإِدْرَاكِيَّةَ الْفَوْضَى وَالتَّفَاهَاتِ، فَإِنَّ الْمَعْرُوضَ شَيْءٌ لَا يَقْبَلُهُ عَقْلٌ وَلَا دِينٌ. هَكَذَا سَيَكُونُ وَعِيَهُ، تَتَحَوَّلُ إِلَى صَوْرٍ زَهْنِيَّةٍ تَافِهَةٍ، تَتَرَسَّخُ كَأَفْكَارٍ تَافِهَةٍ لَا تُسْمِنُ وَلَا تُغْنِي مِنْ جُوعٍ. تَتَرَسَّخُ فِي الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ. يُصْبِحُ الْقَلْبُ أَسْوَدَ لِعَدَمِ سَقْيِهِ بِنُورِ الْإِيمَانِ، بَلْ يُسْقَى بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهُ وَالْقُلُوبَ، فَتَنْمُو فِي الْقُلُوبِ بَوَاعِثُ الشَّرِّ حَتَّى تُصْبِحَ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ أَسَاسُهَا الْكُفْرُ وَالتَّفَاقُ وَالتُّغْيَانُ وَالحَقْدُ وَالبَغْضَاءُ وَحُبُّ الْأَنَا وَالْعُرُورُ، الْكِبْرِيَاءُ وَحُبُّ الْمَعْصِيَةِ وَالِاسْتِكْبَارُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: 118]، أَي تَشَابَهَتْ بِالْكَفْرِ وَالتُّغْيَانِ.

كُلُّهَا طِبَاعٌ سَلْبِيَّةٌ تَمَتْ فِي قُلُوبِهِمْ نَتِيجَةً سَقِيهَا مِنْ صَدِيدٍ وَعِيَهُمْ.

فَلَا إِجْرَاءَ فِعْلِيٍّ ضَابِطٍ لِنُفُوسِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ مِنْ هَذَا الْفَلْتَانِ! لِأَنَّ الْإِجْرَاءَ الضَّابِطَ مِنَ الْعَقْلِ الطَّبْعِيِّ الْوَاعِظِ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ قَدْ تَمَّ الْأَنْقِلَابُ عَلَيْهِ لِشُرُودِهِ وَجُنُوحِهِ، فَقَادَ الْهَوَى النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ وَالْخَبِيثَةِ. فَلَا وَاعِظَ دِينِيٍّ، وَلَا وَاعِظَ أَخْلَاقِيٍّ، وَلَا وَاعِظَ عَقْلِيٍّ يَرُدُّعُهُمْ عَنِ فِعْلِ الرَّدَى. فَكَانَتْ إِرَادَتُهُمْ إِرَادَةً هَدَامَةً لِأَيِّ عَمَلٍ خَيْرٍ، مِمَّا يُؤَكِّدُهُ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "الْخَيْرُ عَادَةٌ، وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ". (1)

(1) سفن ابن ماجة.

فُلُوبُهُمْ وَعَقُولُهُمْ شَعُوفَةٌ بِحُبِّ الشَّرِّ، وَبِحُبِّ الْأَنَاءِ، وَالْإغْتِرَارِ، وَالْكَبْرِيَاءِ،
فَأَصْبَحَتْ إِرَادَتُهُمْ شَرِيرَةً شَيْطَانِيَّةً. وَالْعَقْلُ هُوَ مَرْكَزُ الْإِرَادَةِ وَقَائِدُهَا، فَيَرْتَحِلُ
الْعَقْلُ، وَيَكُونُ بَدِيلَهُ الْهَوَى. فَمَنْ قَادَهُ هَوَاهُ هَوَى.

أَسْئَلَةٌ هَامَّةٌ:

➤ هل تكون بواباتهم الإدراكية تعمل وفق إيقاع معين، تحت تأثير البيئة
والأصحاب؟

➤ هل التصورات الذهنية التي تشكلت فيهم سلبية بالمطلق؟

➤ أين مكان وعيهم في عملية الانحدار؟ وما هي الفهم لديهم؟

تعالوا معاً نتابع...

بِدَايَةٍ: تَأْتِيرُ الْبِيئَةِ عَظِيمٌ، تَأْتِيرُ الْأَصْدِقَاءِ أَعْظَمُ، وَتَأْتِيرُ الْبَثِّ الْإِعْلَامِيِّ مِنْ
(مَحَرَّكَاتِ الْبَحْثِ الْعَالَمِيَّةِ أَمْثَالُ: تِيكَ توك، الْفَيْس بوك، يُوْتِيُوب) أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ.
عِنْدَمَا تَجْتَمِعُ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ وَالْمَفَاهِيمُ السَّلْبِيَّةُ، وَخَاصَّةً فِي عَصْرِ التَّقَاهَاتِ، تَعْمَلُ
عَمَلَهَا فِي الْإِنْجِدَارِ فِي الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ! كَيْفَ؟ ... كَيْفَ تَعْمَلُ عَمَلَهَا؟

{إِنَّ الْأَخْلَاقَ وَالسُّلُوكِيَّاتِ مَا هِيَ إِلَّا طِبَاعٌ مَطْبُوعَةٌ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، مَجْبُولَةٌ فِي
الْإِنْسَانِ، مِنْهَا الظَّاهِرَةُ لِلْعِيَانِ، وَمِنْهَا الْمَسْتُورَةُ لِلْعِيَانِ، لَا يَعْرِفُ عَدَدَهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،
مَوْجُودَةٌ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ حَصْرًا، تَتَأَثَّرُ بِمُؤَثِّرَاتٍ كَثِيرَةٍ: مِنْهَا الْبِيئَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ،
وَالْأَهْلُ، وَالصُّحْبَةُ، وَالْمُجْتَمَعُ، وَمَا يُبْنَى فِيهَا مِنْ مَفَاهِيمٍ وَمُعْتَقَدَاتٍ قَدْ تَكُونُ صَاحِبَةً
أَوْ مَغْلُوطَةً، مِنْهَا ظَنِّيَّةٌ وَسُوَاسِيَّةٌ حَاقِدَةٌ، يُحَرِّكُهَا الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ وَهَوَى النَّفْسِ.

عِنْدَمَا يَعِيشُ الْفَرْدُ وَسَطَ التَّقَاهَاتِ، لَنْ يَكُونَ إِدْرَاكُهُ وَوَعْيُهُ إِلَّا فِي نِطَاقِ مَا
نَسْتَقْبِلُهُ الْبَوَابَاتِ الْإِدْرَاكِيَّةِ مِنْ مَعْلُومَاتٍ وَأَخْبَارٍ وَاهِيَةٍ تَافِهَةٍ، تَتَحَوَّلُ إِلَى صُورٍ
ذَهْنِيَّةٍ سَمْعِيَّةٍ بَصْرِيَّةٍ ذَوْقِيَّةٍ، فِيهَا مِنَ الْإِنْحِطَاطِ وَالْخُدْلَانِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ... تَتَجَمَّعُ

هَذِهِ الصُّورُ الدِّهْنِيَّةُ لِشُكْلِ أَفْكَارٍ! أَفْكَارًا وَاهِيَّةً، سَطْحِيَّةً، قَدْ تَكُونُ مَلِيئَةً بِالْبُغْضِ
وَالْكَرَاهِيَّةِ لِلْآخِرِ... قَدْ تَكُونُ فِيهَا مِنَ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُتُوِّ وَحُبِّ الْأَنَا وَالْعُرُورِ الشَّيْءِ
الْكَثِيرِ. هَذِهِ الْأَفْكَارُ الْعَفْنَةُ الْمَيْتَةُ تَتَجَدَّرُ وَتَقْوَى لِتُصْبِحَ مَفَاهِيمَ مُتَجَدِّرَةً فِي الْقُلُوبِ
وَالْعُقُولِ الْغَافِلَةِ. وَبِاسْتِمْرَارِهَا... وَبِإِعَادَةِ اسْتِقْبَالِ الْبَرَابَاتِ الْإِدْرَاكِيَّةِ لِلْمَعْلُومَاتِ
وَالْمَفَاهِيمِ النَّافِهَةِ، تَتَكَرَّرُ هَذِهِ الْأَفْكَارُ فِي وَعْيِ الْفَرْدِ، فَنَعُودُ وَتَتَجَدَّرُ كَمَفَاهِيمِ
رَاسِخَةٍ، فَتَنَحَوَّلُ إِلَى صِفَاتٍ وَسَجَايَا تَسْكُنُ الْقُلُوبَ الْمَيْتَةَ كَطِبَاعٍ. عِنْدَهَا يُنَادِي
صَاحِبُهَا بِاسْمِهَا، فَتُصْبِحُ مُعْتَقَدَاتٍ يَحْمِلُهَا وَيُدَافِعُ عَنْهَا وَيَسْتَمِيتُ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا،
فَتُصْبِحُ الْقُلُوبُ قَاسِيَةً لِقَسَاوَةِ الطِّبَاعِ وَالْأَفْكَارِ وَالْمَفَاهِيمِ الَّتِي يَحْمِلُهَا، وَيُنَادِي
حَامِلُهَا بِاسْمِهَا: مَآكِرٌ - حَاقِدٌ - لَيْيْمٌ - عَصِيْبٌ - هَمَجِيٌّ - عُدُوَانِيٌّ - مُتَعَالٍ - أَنَانِيٌّ
- مُخَادِعٌ - انْتِهَازِيٌّ - كَذَّابٌ - وُصُولِيٌّ - خَائِنٌ - غَاصِبٌ. وَهِيَ جُزْءٌ بَسِيطٌ مِنَ
الطِّبَاعِ الَّتِي كَشَفَتْ عَنْ صَاحِبِهَا، وَقَدْ يَكُونُ قَدْ سَتَرَهَا بِغَطَاءٍ مَآكِرٍ مِنَ النِّفَاقِ
وَلَبَسِ الْأَفْنَعَةِ لِلتَّخْفِي عَنِ الْآخِرِ بِإِظْهَارِ صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ كَشْفِ
الْمَسْتُورِ عَاجِلًا أَمْ أَجَلًا.

هَذِهِ الْقُلُوبُ الْقَاسِيَةُ السُّودَاءُ تَمِيلُ إِلَى عَمَلِ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ هَوَاهَا قَادَ نُفُوسَهُمُ الْأَمَارَةَ
بِالسُّوءِ لِعَمَلِ وَقَوْلِ الشَّرِّ، وَإِظْهَارِ الْمُؤَامَرَاتِ، وَالْمَكَائِدِ، وَالْعُدْرِ. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30]. (1)

هَذِهِ الْقَادُورَاتُ السُّلُوكِيَّةُ تَرَسَخَتْ فِي قُلُوبِهِمْ حَتَّى صَارَتْ سَجَايَا طَبِيعِيَّةً
فِيهِمْ. {الْمَزَاوِلَاتُ تُعْطِي الْمَلَكَاتِ. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ مَنْ زَاوَلَ شَيْئًا وَاعْتَادَهُ وَتَمَرَّنَ
عَلَيْهِ، صَارَ مَلَكَةً لَهُ وَسَجِيَّةً طَبِيعِيَّةً. وَقَالُوا: "الْعَوَائِدُ تَنْقُلُ الطَّبَائِعَ". (2)

(1) د. ماهر جميل بايزيد: إسرائيل أو هن من بيت العنكبوت، ص (77-78) يتصرف.

(2) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص (18).

{وَالْمَلَكَاتُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِتَكَرُّرِ الْأَفْعَالِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ يَقَعُ أَوَّلًا، فَتَعَوُّدُ مِنْهُ الدَّائِمُ صِفَةً، ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالًا. وَمَعْنَى الْحَالِ أَنَّهَا صِفَةٌ غَيْرُ رَاسِخَةٍ، ثُمَّ يَزِيدُ التَّكَرُّارُ فَتَكُونُ مَلَكََةً، أَي صِفَةً رَاسِخَةً.} (1)

هَكَذَا تَتَرَسَّخُ وَتَظْهَرُ بِقُوَّةٍ فِي الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ الطِّبَاغُ اللَّيِّمَةُ، الَّتِي انْعَقَدَتْ فِي الْمَوْرُوثَاتِ السُّلُوكِيَّةِ الْقَلْبِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ تَنَحَّتِ الْمَوْرُوثَاتُ السُّلُوكِيَّةُ الْإِيجَابِيَّةُ الْمُعَاكِسَةُ لَهَا وَضَمُرَتْ، وَأَصْبَحَتْ سَاكِئَةً بِلا حَرَكَةٍ. وَهَكَذَا ظَهَرَتْ الْمَوْرُوثَاتُ السُّلُوكِيَّةُ الدَّمِيمَةُ بِكُلِّ وَقَاحَةٍ وَبِقُوَّةٍ، تُعْلِنُ طِبَاغَهُمْ وَذَاتَهُمْ وَقَنَاعَاتِهِمْ وَوَعِيَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَفْلَةِ وَالسَّفَاهَةِ وَالْجَهَالَةِ، لَا يَعْرِفُونَ حَالًا... يَمْشُونَ بِأَهْوَائِهِمْ وَسَهْوَاتِهِمْ، فَلَا يَمْنَعُهُمْ شَيْءٌ. إِنَّهُمْ كَالْبَعِيرِ لَا عِقَالَ يَعْقِلُهُمْ... يَتَحَرَّكُونَ وَفَقَ أَهْوَائِهِمْ التَّنْبَنَةَ، وَوَفَقَ مَا أَوْعَوْهُ فِي أَدْهَانِهِمْ.

{هَذَا الْإِنْزِلَاقُ فِي مَتَاهَةِ الْهَوَى هُوَ انْفِلَاتٌ مِنْ قِيُودِ الْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ. فَالْإِنْسَانُ بِمَا حَمَلَ مِنْ أَفْكَارٍ، وَبِإِرَادَتِهِ الَّتِي بَنَاهَا لِنَفْسِهِ، سَيَكُونُ مَسْئُولًا عَنْهَا. فَالْجَاهِلُ بِرَبِّهِ يَشْرُدُ هَوَاهُ إِلَى الْحَضِيضِ.} (2)

عِنْدَهَا يَأْتَمِرُونَ بِمَا تُوجِيهِ شَيَاطِينُهُمْ وَتُوسَّوسُ وَتُزَيِّنُ لَهُمْ. {وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} [الأنفال: 48].

تَعَالَوْا نُنَابِعْ بَعْضَ الصِّفَاتِ الدَّمِيمَةِ وَسُلُوكِ أَصْحَابِهَا الَّتِي تُؤَثِّرُ عَلَى بِنْيَةِ الْمُعْتَقِدِ فِي الْقُلُوبِ.

(1) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: المقدمة، ص (554)
(2) د. ماهر جميل بايزيد: بين العقل والقلب الإعجازيين، ص (253).

البراج الثاني

الطراح الذميمة

الفصل الأول

أثر الطَّبَاعِ الدَّمِيمَةِ عَلَى وَعِيِ الْفَرْدِ

الغرور:

سُكُونُ النَّفْسِ إِلَى مَا يُوَافِقُ الْهَوَى، وَأَنْوَاعُهُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

✓ غُرُورُ بَعْضِ النَّاسِ بِالدُّنْيَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْرَتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزَتْكُمْ

بِاللَّهِ الْعُرُورُ﴾ [لقمان: 33]

✓ غُرُورُ الَّذِينَ اتَّخَذَهُمُ الشَّيْطَانُ أَلْعُوبَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَيِّبُهُمْ

وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: 120]. هَذَا الْغُرُورُ أَوْصَلَ صَاحِبَهُ

إِلَى الْإِنْجِدَارِ فِي مَنْظُومَةِ الْوَعِيِّ، حَتَّى أَنْسَاهُمْ دِينَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّهُمْ

فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 24]

{وَالْعَجَبُ الْعَجَابُ: اغْتِرَارُ الظَّالِمِ بِظُلْمِهِ، وَيَعْقُلُ أَنَّ اللَّهَ يُمَهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ.

وَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ أَنَّ الْمَعْرُورَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرُ بِنَفْسِهِ وَيَعْلَمُهُ وَيَمَهِّتُهُ، بَلْ وَيَهْدِيهِ الْحَيَاةَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185]. هَذَا الْغُرُورُ يَنْتُجُ

عَنِ الْجَهْلِ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ جَاهِلٌ، وَلَوْ كَانَ عَالِمًا. إِذْ مَنْ كَانَ غُرُورُهُ فِي عِلْمِهِ فَلْيَقْسُ

عِلْمَهُ إِلَى الْعُلَمَاءِ. (1)

هَكَذَا هُمْ يَمْلِكُونَ الطَّبَاعَ الدَّمِيمَةَ. تَعَالَوْا نَقْرَأْ عَنِ الدَّلَّةِ وَالْوَضَاعَةِ: لَيْسَتْ مِنْ

سِمَاتِ الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ.

يُعْجِبُنِي قَوْلُ الْمُصْلِحِ الْكَبِيرِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ بَادِيَسَ الشَّهِيرِ: "الْجَاهِلُ مُمَكِّنٌ أَنْ

تَعْلَمَهُ، وَالْجَافِي مُمَكِّنٌ أَنْ تُهْدَبَهُ، وَلَكِنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي نَشَأُ عَلَى الدَّلِّ، يَعْسُرُ أَوْ يَتَعَدَّرُ أَنْ

تَعْرِسَ فِي نَفْسِهِ الدَّلِيلَةَ الْمُهَيَّئَةَ عِرَّةً وَإِبَاءً وَشَهَامَةً تُلْحِقُهُ بِالرَّجَالِ".

(1) د. ماهر جميل بايزيد: لنين منظومتنا الأخلاقية - الطبعة المنقحة - ص (54 - 55)

الحقد والحسد:

إِنَّهَا طِبَاعٌ سُلُوكِيَّةٌ نَمَتْ وَأَثَرَتْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الضَّعَائِنَ وَالْبَعْضَاءَ وَالْغِلَّ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَمْ يَعُدْ لِلْإِيمَانِ مَكَانٌ فِي قُلُوبِهِمْ. إِنَّهَا طِبَاعٌ تَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ، وَتَأْكُلُ النَّعَمَ، وَتَأْكُلُ الْإِيمَانَ، وَتَأْكُلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ.

الْحَقْدُ وَالْغِلُّ: اصطلاحًا: هُوَ حَبْسُ الْعِدَاوَةِ وَالْبَعْضَاءِ فِي الصَّدْرِ مَعَ التَّرْبُصِ لِلْإِنْتِقَامِ فِي وَقْتٍ مَا.

أَمَّا الْحَسَدُ لُغَةً: أَصْلُهُ الْفِشْرُ؛ حَسَدَ الشَّجَرَةَ أَخَذَ عَنْهَا لِحَاوُهَا. فَالْحَسَدُ يَفْشِرُ الْقَلْبَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، كَمَا يَفْشِرُ الْقِرَادُ الْجِلْدَ. (1)

وَالْحَسَدُ اصطلاحًا: تَمَيَّي زَوَالِ نِعْمَةِ الْمَحْسُودِ. (2)

الْحَقْدُ وَالْحَسَدُ سَبَبُهُمَا الْأَسَاسِيُّ الْخُصُومَةُ وَالْعِدَاءُ لِلْآخِرِ. يَتَقَارَبُ الْحَاقِدُ مَعَ الْحَاسِدِ فِي أَنَّهُمَا وَجْهَانِ لِعُمَلَةٍ وَاحِدَةٍ.

الْحَاقِدُ: يَحْبِسُ عِدَاوَتَهُ فِي صَدْرِهِ لِجِنِ الْإِنْتِقَامِ.

الْحَاسِدُ: يَرْجُو زَوَالَ النَّعْمَةِ عَنِ الْآخِرِ.

هَذَا الَّذِي يَحْدُثُ لِلْقَلْبِ الْمَشْحُونِ بِالْكَرَاهِيَةِ الْمُدْنَسِ بِالطَّبَاعِ الْمَذْمُومَةِ...

هَكَذَا هُمْ لَا يُجِبُونَ الْخَيْرَ لِأَحَدٍ.

رُوي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، إِنْ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: إِنْ شِرَارِكُمْ الَّذِي يَنْزِلُ وَحْدَهُ، وَيَجْلِدُ عَبْدَهُ، وَيَمْنَعُ رِفْدَهُ. أَفَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشِرِّ مَنْ ذَلِكَ؟ قَالُوا: بَلَى، إِنْ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مَنْ يُبْغِضُ النَّاسَ وَيُبْغِضُونَهُ. أَفَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشِرِّ مَنْ ذَلِكَ؟ قَالُوا: بَلَى، إِنْ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: الَّذِينَ

(1) معالم الشخصية الإسلامية ص (227)

(2) مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ص (76)

لَا يَقْبَلُونَ عُثْرَةً، وَلَا يَقْبَلُونَ مَعْذِرَةً، وَلَا يَغْفِرُونَ ذَنْبًا. أَفَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: أَشَرُّ أَشَرِّ النَّاسِ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ، وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ". (1)

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ، كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ". (2)

فَإِذَا كَثُرَ الْمَالُ وَالْجَاهُ، زَادَ الْحَسَدُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَنْ يَكْثُرَ فِيهِمُ الْمَالُ فَيَتَحَاسَدُوا وَيَفْتَنُوا". (3)

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ لَسَبَقْتُهُ الْعَيْنُ". (4)

الكِبْرُ وَالْخِيَلَاءُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا﴾ [غافر: 35].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ". (5)

بَطْرُ الْحَقِّ: أَي رُدُّهُ وَدَفْعُهُ، حِينَ يُعْرَضُ الْإِنْسَانُ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَيَدْفَعُهُ وَيَرُدُّهُ، كَمَا فَعَلَ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ حِينَ رَدَّ الْحَقَّ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

وَغَمَطُ النَّاسِ: أَي اخْتِقَارُهُمْ، وَالتَّكْبِيرُ عَلَى النَّاسِ، حِينَ يَرَى نَفْسَهُ أَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ النَّاسِ، وَأَنَّهُ الْأَعْنَى وَالْأَقْوَى، أَوْ الْأَشْرَفُ مِنْ غَيْرِهِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِازْدِرَاءٍ وَاسْتِخْفَافٍ. وَالْكِبْرُ هُوَ رُؤْيُهُ أَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ النَّاسِ، وَالنَّاسُ دُونَهُ.

وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُنْتَلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ". (6)

(1) المعجم الأوسط: الطبراني.

(2) أخرجه أبو داود.

(3) أخرجه الطبراني.

(4) رواه مسلم برقم (2188).

(5) رواه مسلم برقم (91).

(6) رواه البخاري برقم (6071).

الْعُثْلُ هُوَ: الْغَلِيظُ الْجَافِي. وَالْجَوَاطُ هُوَ: الْجَمُوعُ الْمُنُوعُ.

الْكَبِيرُ: هُوَ حَالَةٌ مَرَضِيَّةٌ اضْطَرَّابِيَّةٌ فِي نَفْسِيَّةِ حَامِلِهَا، يَمْتَنِعُ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَلَا يَتَنَازَلُ لِلْآخَرِينَ، يَنْظُرُ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ أَنَّهُمْ كَالذَّرِّ.

(وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل: 53].

تَذَكَّرْ يَا أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمُسْتَكْبِرُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يُحِبُّكَ. (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) [النحل: 23]. وَتَذَكَّرْ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَنْبُتُ عَلَى حَالٍ. قَالَ تَعَالَى: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [آل عمران: 140].

هَذَا مَا أَوْعَاهُ فِي عَقْلِهِ وَقَلْبِهِ!!

أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ:

فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: "مَنْ صَمَتَ نَجَا". (1)

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: "تَكَلَّمْتُكَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!"

فَلَا يَنْجُو مِنْ شَرِّ اللِّسَانِ إِلَّا مَنْ قَيَّدَهُ بِلِجَامِ الشَّرْعِ.

اللِّسَانُ أَعْظَمُ آلَةٍ لِلشَّيْطَانِ فِي اسْتِغْوَاءِ الْإِنْسَانِ. "الصَّمْتُ حُكْمٌ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ" (2).
وَآفَاتُ اللِّسَانِ لَا تَعُدُّ وَلَا تُحْصَى...

لَا تَخْضُ فِي الْبَاطِلِ، كُنْ صَامِتًا تُسْتَهَابُ.

(1) أخرجه الترمذي.

(2) مسند الفردوس: أخرجه شهردار بن شيرويه أبو منصور الديلمي.

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لَا تَتَعَرَّضْ لِمَا لَا يَعْنيكَ، وَاعْتَزِلْ عُدُوكَ، وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا أَمِينًا، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ خَشِيَ اللَّهَ تَعَالَى، وَلَا تُصَاحِبِ الْفَاجِرَ فَتَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِ، وَلَا تُطْلِعْهُ عَلَى سِرِّكَ، وَاسْتَشِيرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى".

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ". (1) فَلَا يَجُوزُ الْحَوْضُ بِالْبَاطِلِ وَفُضُولُ الْكَلَامِ.

الْمِرَاءُ وَالْجِدَالُ:

الْمِرَاءُ: اعْتِرَاضٌ بِقَصْدِ الْإِهَانَةِ عَلَى كَلَامِ الْآخَرِ، بِإِظْهَارِ عُيُوبٍ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْمِرَاءَ فِيهِ إِذْلَالٌ لِلْآخَرِ، وَالِاسْتِهَانَةُ بِهِ وَبِعِلْمِهِ وَتَحْقِيرُهُ أَمَامَ النَّاسِ. كُلُّ هَذَا لِيُثَبِتَ الْمِرَائِي أَنَّهُ الْأَفْهَمُ، وَلَيْسَتْ عَرَضٌ أَسْلُوبِيَّةٌ هَذَا.

الْجِدَالُ: الْمُفَاوَضَةُ فِي سَبِيلِ الْمُنَازَعَةِ وَالْمُعَالَبَةِ، وَأَصْلُهُ مِنْ جَدَلْتُ الْحَبْلَ؛ أَيِ أَحْكَمْتُ فَتَلُهُ. وَمِنْهُ الْجِدَالُ، فَكَانَ الْمُتَجَادِلَيْنِ يَفْتَلُ كُلُّ وَاحِدٍ الْآخَرَ عَنْ رَأْيِهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ جَادَلَ فِي خُصُومَةٍ بَعِيرٍ عَلِيمٍ، لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ". (2)

وَالرَّدُّ الْمُنَاسِبُ عَلَى أَمْثَالِ هُوَ لَاءٌ: ابْتَعَدَ عَنْهُمْ، وَإِذَا خَاطَبُوكَ فَقُلْ: سَلَامًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْنُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63].

ابْتَعَدَ عَنْهُمْ، هُمْ أَهْلُ اللَّغْوِ وَالْجَهْلِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: 5].

(1) رواه أحمد.

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا.

الفحش والسب واللعن:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِبَاكُمُ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا النَّفْحُشَ". (1)

وَالْفُحْشُ هُوَ لَفْظٌ مَعِيْبٌ أَنْ يُقَالَ عَلْنَا.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ، وَلَا اللَّعَانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ". (2)

وَأَمَّا اللَّعْنُ: فَمَنْ تَبَتَّ سَرَعًا لَعْنَتْهُ فَتَجُوزُ لَعْنَتُهُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا، فَهُوَ كَمَقْتَلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ، فَهُوَ كَقَتْلِهِ". (3)

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَوْصِيكَ أَلَّا تَكُونَ لَعَانًا". (4)

السُّخْرِيَّةُ وَالِاسْتِهْزَاءُ وَالْمُجَاهَرَةُ بِالْمَعَاصِي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11].

وَعَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَىٰ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ مَا سَتَرَهُ اللَّهُ عَنْهُ". (5)

(1) أخرجه النسائي في السنن الكبرى.

(2) أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح.

(3) رواه البخاري برقم (6047) جزء من الحديث.

(4) أخرجه أحمد.

(5) رواه مسلم برقم (2990).

الغيبَةُ والنَّمِيمَةُ والنُّبُهَاتَانُ:

الغيبَةُ: ذِكْرُكَ لِأَخِيكَ بِمَا يَكْرَهُهُ وَذَمُّهُ، وَفِيهِ مَا ذَكَرْتَهُ.

النُّبُهَاتَانُ: ذِكْرُكَ لِأَخِيكَ بِمَا يَكْرَهُهُ وَلَيْسَ فِيهِ مَا ذَكَرْتَهُ، وَهُوَ الْبَاطِلُ. وَأَصْلُ النُّبُهَاتَانِ أَنْ يُقَالَ لَهُ الْبَاطِلُ فِي وَجْهِهِ.

الغيبَةُ والنُّبُهَاتَانُ والنَّمِيمَةُ خُلِقَ دَمِيمٌ يَمْفُتُهُ السَّرْعُ وَالْعُرْفُ وَالتَّقَالِيدُ، وَهُوَ كَالَّذِي يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا. وَالنَّمِيمَةُ مِنْ نَمَّ الشَّيْءُ؛ أَي أَظْهَرَهُ وَأَبْرَزَهُ، لِأَنَّ النَّمَامَ يُظْهِرُ الْحَدِيثَ وَالْكَلامَ إِلَى الْآخَرِينَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: 12].

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مُرَرْتُ لَيْلَةَ سُرِّي بِي عَلَى أَقْوَامٍ يَخْمِسُونَ وُجُوهُهُمْ بِأُظْفَارِهِمْ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيْلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ". (1)

وَأَخْطَرُ الطَّبَّاعِ الْكِذْبُ وَالْخِيَانَةُ... تَعَالَوْا مَعًا نَفْرَأُ.

طَبْعُ الْكِذْبِ: (2)

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28].

الْكِذْبُ: إِخْبَارٌ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ.

(1) أخرجه أبو داود.

(2) د. ماهر جميل بايزيد: علم الطباع السلوكي وصراع الإرادات العقلية (من ص 100 إلى 105) بتصرف.

طَبَعُ الْكِذْبِ صِفَةٌ دَمِيمَةٌ طَبَعِيَّةٌ، يَعْشَقُهَا الْإِنْسَانُ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ آفَةٌ جَامِعَةٌ
لِكُلِّ الْأَقَاتِ. يَزْدَادُ هَذَا الطَّبَعُ جِدَّةً، لِيَسْرِيَ فِي عُرُوقِ صَاحِبِهِ بِإِرَادَتِهِ وَمِثْلِهِ
وَمَزَاولَتِهِ لَهُ، فَيَنْطَبِعُ الْقَلْبُ بِرِدَاءِ الْكِذْبِ وَالْخِيَانَةِ وَالنِّفَاقِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ الصِّدْقَ يُهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يُهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ
الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الْكِذْبَ يُهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يُهْدِي
إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا". (1)

الْفُجُورُ: شَقٌّ سِنْرُ الدِّيَانَةِ. يُقَالُ: فَجَرَ فُجُورًا، فَهُوَ فَاجِرٌ، وَجَمَعَهُ فُجَارٌ وَفَجْرَةٌ.
(أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ) [عبس: 42].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) [القيامة: 5]، أَيُّ يُرِيدُ الْحَيَاةَ
لِيَتَعَاطَى الْفُجُورَ فِيهَا. وَقِيلَ: مَعْنَاهَا لِيَذْنِبَ فِيهَا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يَذْنِبُ، وَيَقُولُ: عَدَا
أَتُوبُ، ثُمَّ لَا يَفْعَلُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ فُجُورًا لِيَذْلِهِ عَهْدًا لَا يَبْقَى بِهِ. وَسُمِّيَ الْكَاذِبُ فَاجِرًا
لِكَوْنِ الْكِذْبِ بَعْضَ الْفُجُورِ. (2)

يَكْذِبُ وَيَكْذِبُ حَتَّى يُسَمَّى كَذَّابًا، أَشْرٌ يَقْلِبُ الْحَقَّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ حَقًّا. وَالْإِفْكَ أَفْبَحُ
الْكِذْبِ وَأَفْحَشُهُ.

وَأَخْطَرُ مَا فِي طَبَعِ الْكُذَّابِ أَنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الدِّينِ. يَسْتَعْدِمُ الْكُذَّابُ سِلَاحَ الْكِذْبِ
لِيَتَّقَنَنَّ فِي الْبُهْتَانِ عَلَى الْآخِرِينَ، وَيُنَسِّرُ الْإِشَاعَاتِ وَقَوْلَ الزُّورِ. عَنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ ثَلَاثًا". قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.
قَالَ: "الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُفُوقُ الْوَالِدِينَ". وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: "أَلَا وَقَوْلُ
الزُّورِ". فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ". (3)

(1) رواه البخاري برقم (6094).

(2) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص (375).

(3) رواه البخاري برقم (6273).

الكَذَّابُ يَحْمِلُ الشَّرَّ وَالْإِفْسَادَ فِي قَلْبِهِ؛ لِأَنَّهُ انْفَصَلَ عَنِ الدِّينِ بِالمُجْمَلِ، فَتَقَسَّدُ طِبَاعُهُ كُلُّهَا كَمَا يَقْسُدُ الخُلُّ العَسَلَ.

الكِذْبُ مِنْ عِلَامَاتِ مَرَضِ القُلُوبِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10].

وَالكَاذِبُ يُحْرَمُ مِنَ الهِدَايَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: 3].

لِهَذِهِ الأَسْبَابِ، فَإِنَّ الكِذْبَ وَالخِيَانَةَ لَيْسَتَا مِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِ إِطْلَاقًا، وَلَيْسَتَا مِنَ الطَّبَاعِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا المُؤْمِنُ. قَدْ يَدْخُلُ فِي قَلْبِهِ كِذْبٌ عَارِضٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنَ سِمَاتِهِ وَسِمَاتِ أَخْلَاقِهِ؛ لِأَنَّ الإِيمَانَ أَسَاسُهُ الصِّدْقُ، وَالنِّفَاقَ أَسَاسُهُ الكِذْبُ. وَالكِذَّابُ الأَشْبَهُ مَنْ تَطَبَّعَ عَلَى الكِذْبِ وَأَصْبَحَ فِي عُرُوقِهِ، وَنُودِيَ فِي النَّاسِ أَنَّهُ كَذَّابٌ.

طَبْعُ الخِيَانَةِ وَنَقْضُ الأَمَانَةِ:

الخِيَانَةُ وَالنِّفَاقُ وَاحِدٌ، إِلاَّ أَنَّ الخِيَانَةَ تُقَالُ اعْتِبَارًا بِالعَهْدِ وَالأَمَانَةِ، وَالنِّفَاقُ يُقَالُ اعْتِبَارًا بِالدِّينِ، ثُمَّ يَتَدَخَّلَانِ. فَالخِيَانَةُ مُخَالَفَةُ الحَقِّ بِنَقْضِ العَهْدِ فِي السِّرِّ، وَنَقِيضُ الخِيَانَةِ: الأَمَانَةُ. يُقَالُ: حُنْتُ فُلَانًا، وَحُنْتُ أَمَانَةَ فُلَانٍ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 187].

وَالإِخْتِيَانُ: مُرَاوَدَةُ الخِيَانَةِ، وَلَمْ يَقُلْ (تَخُونُونَ أَنْفُسَكُمْ)؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ الخِيَانَةُ، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ الإِخْتِيَانُ؛ فَإِنَّ الإِخْتِيَانَ تَحَرُّكُ شَهْوَةِ الإِنْسَانِ لِتَحَرِّيِ الخِيَانَةِ. (1)

(1) الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص (167).

الدَّافِعِ الْأَسَاسِيِّ لِلْخِيَانَةِ شَهْوَةٌ تَتَحَرَّكُ فِي دَاخِلِ صَدْرِ الْإِنْسَانِ تَحْتُهُ عَلَى الْخِيَانَةِ، تَطْهَرُ كَصُورٍ ذَهْنِيَّةٍ تُرَاوِدُهُ، ثُمَّ تَتَشَكَّلُ فِكْرَةُ الْخِيَانَةِ، فَتُظْهِرُ الطَّبَاعَ الدَّمِيمَةَ بِهَذِهِ الشَّهْوَةِ وَالدَّةِ عَمَلِهَا، لِضَعْفِ الرَّقِيبِ وَالْوَاعِظِ الْعَقْلِيِّ لِسَيْطَرَةِ الشَّهْوَةِ وَالْهَوَى عَلَى الْعَقْلِ. عِنْدَهَا تَتَحَرَّكُ الْإِرَادَةُ السَّلْبِيَّةُ لِفِعْلِ الْخِيَانَةِ.

وَطَبَعُ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ لَيْسَتَا مِنْ طَبَاعِ الْمُؤْمِنِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا، قَدْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالْإِخْتِيَانِ، وَكَئِنَّهُ لَيْسَ بِخَائِنٍ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ أَمِينٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ: عَلَى أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَطَنِهِ وَعَلَى عَمَلِهِ وَدِينِهِ. يَدُلُّ هَذَا عَلَى يَقِظَةِ وَعِيهِ وَالضَّمِيرِ، وَحَسِّ الْمَسْئُولِيَّةِ، أَنَّ الْأَمَانَةَ مِنْ صَوْنِ حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ، هِيَ مَسْئُولِيَّةٌ سَيُسْأَلُ عَنْهَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27].

جَعَلَتِ الْأَمَانَةَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: 8].

إِنَّ الْأَصْلَ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ الْأَمَانَةُ وَلَيْسَتِ الْخِيَانَةُ، فَالْأَمَانَةُ غُرَسَتْ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُغْرَسِ الْخِيَانَةُ فِي قُلُوبِهِمْ. قَالَ ﷺ: "يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ الْخِلَالِ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ". (1)

فَالْخِيَانَةُ مُنَاقِضَةٌ لِلْأَمَانَةِ وَالْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ مَعْنَاهُ التَّصَدِيقُ، وَهُوَ أَنْ يُؤْمِنَ الْإِنْسَانُ بِالْقَلْبِ وَيُقَرَّرَ بِاللِّسَانِ، وَيُطَبِّقَ هَذَا الْإِعْتِقَادَ بِسُلُوكِهِ وَعَمَلِهِ. (2)

فَسُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي فَرَّقَ بَنُورِهِ بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَأَهْلِ الْكُفْرِ.

(1) رواه أحمد وأحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي.

(2) محمد علي الصابوني: أمنت بالله، ص (22).

الرباع الثالث

فهم الحقائق بالمقلوب

الفصل الأول

ضخ الأفكار المعبّبة

ظاهرها حسنٌ وباطنها قبيحٌ

مرض العصر المُعدي، يَنْتَشِرُ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ، مِثْلَ: الكُولِيرَا، الإنْفُلُونزَا، الجَرَب. حَيْثُ يَتَأَثَّرُ الوَعْيُ الجَمْعِيُّ بِمَا تَسْتَقْبِلُهُ البَوَابُ الإِدْرَاكِيَّةُ مِنْ أَفْكَارٍ وَاهِيَةٍ قَاتِلَةٍ مُضِرَّةٍ مِنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ السَّيْطَرَةَ عَلَى العَالَمِ وَقَلْبَ مَفَاهِيمِهِ كَلِيًّا. إِنَّهُمْ أَدَوَاتُ الدَّوَلَةِ العَمِيقَةِ المُتَجَدِّدَةِ فِي امْتِلَاكِ الفَرَارِ العَالَمِيِّ، بِحُكْمِ أَنَّهُمْ يُدِيرُونَ البُنُوكَ العَالَمِيَّةَ وَالتَّعَامُلَاتِ الرَّبَوِيَّةَ.

هُم يُحَارِبُونَ ثِقَاتِنَا... مَفَاهِيمَنَا... نَظَرَتْنَا لِالحَيَاةِ. يُرِيدُونَ تَخْرِيْبَ وَعَيْنَا، حَيْثُ يَبْنُونَ أَفْكَارًا ظَاهِرًا مَقْبُولًا وَبَاطِنًا مُدْمِرًا.

مُفَوَّلَاتٌ قَدِيمَةٌ وَحَدِيثَةٌ، أَلْبَسُوهَا بَعْضَ العَنَاوِينِ البَرِّاقَةِ: مِنْ حُفُوقِ المُواطَنَةِ، حُفُوقِ النُّعْبِيرِ، حُفُوقِ الأَقْلِيَّاتِ، السَّلْمِ الأَهْلِيِّ وَالتَّعَايِشِ السَّلْمِيِّ، حُفُوقِ الأَطْفَالِ، حُفُوقِ الزَّوْجِ المَدَنِيِّ، وَهَكَذَا حُفُوقِ الإِنْسَانِ وَالإِنْسَانِيَّةِ، وَأَنَّهُمُ الجَمَلُ الوُدِيعُ! وَنَحْنُ الذِّئَابُ المُفْتَرَسَةُ!!

هَكَذَا تَبَدُّأَ لِكِي يَنْتَشِرَ بِهَا المُجْتَمَعُ المُسْتَقْبِلُ لَهَا؛ لِأَنجِدَارِ وَعِي بَعْضِ أبنَائِهِ، فَعَطَّلُوا حَوَاسِئَهُمْ، وَأَمَاتُوا عُقُولَهُمْ. فَمَا هِيَ الخَلْفِيَّاتُ الحَقِيقِيَّةُ لِهَذِهِ الحُفُوقِ؟

حَقِيقَةُ الخَلْفِيَّاتِ الحَقِيقِيَّةِ لِهَذِهِ الحُفُوقِ تَكْمُنُ فِي أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ اسْتِبْدَالَ مُعْتَقَدَاتِنَا بِقِيمِهِمُ الثَّقَافِيَّةِ وَالحَضَارِيَّةِ - هَكَذَا يُسْمُونَهَا - وَفِي الحَقِيقَةِ هِيَ مُعْتَقَدَاتُهُمْ فِي الهَيْمَنَةِ عَلَى مُقَدَّرَاتِنَا الإِقْتِصَادِيَّةِ وَالجُغْرَافِيَّةِ وَالإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ. أَي: اسْتِبْدَالَ أَفْكَارِنَا بِأَفْكَارِهِمْ، وَمَفَاهِيمِنَا بِمَفَاهِيمِهِمْ، وَالهَيْمَنَةَ عَلَى

كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، طَالَمَا اسْتَطَاعُوا التَّحَكُّمَ فِي الْبَوَابِ الْإِذْرَاقِيَّةِ لِعُقُولِنَا، وَهِيَ
الَّتِي تَسْتَجَلِبُ كُلَّ الْمَعْلُومَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَالْعُلُومِ وَالْخَبَرَاتِ وَالتَّجَارِبِ.

بِهَذَا التَّحَكُّمِ اللَّأَخْلَاقِيِّ وَاللَّاسْلُوكِيِّ مِنْهُمْ، سَيَبْتَمُ غَسْلُ أَدْمَعَةِ النَّاشِئَةِ بِأَفْكَارٍ
لَا أَخْلَاقِيَّةٍ، لَا سُلُوكِيَّةٍ، لَا مَعْرِفِيَّةٍ، لَا عِلْمِيَّةٍ. فَيَبْتُنُونَهَا بِالتَّنْذِيرِجِ عَبْرَ وَسَائِلِهِمْ
الإِعْلَانِيَّةِ وَالْإِعْلَامِيَّةِ، وَسَيَقْبَلُهَا النَّاشِئَةُ؛ لِأَنَّ الْوَعْيَ الْفَرْدِيَّ لِأَكْثَرِهِمْ هَشٌّ،
فَلَا تَرْكِيزَ، وَلَا تَدْوِيرَ لِلزَّوَايَا، وَلَا اسْتِنْبَاطَ، وَلَا مُقَارَنَةَ، وَلَا إِثْبَاتَ.

عِنْدَهَا يَمُوتُ الْوَعْيُ الْفَرْدِيُّ بِالْأُنَانِيَّةِ وَعَدَمِ الْإِكْتِرَاتِ، وَظُهُورِ الطِّبَاعِ
الدَّمِيمَةِ فِي أَكْثَرِهِمْ: مِنَ اللَّامْبَالَاةِ، وَحُبِّ الدَّاتِ، وَسَخَافَةِ وَتَفَاهَةِ الْأَفْكَارِ.
إِنَّهُ عَصْرُ التَّفَاهَاتِ، فَتَزْدَادُ تَحُلُّ الْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ، وَتَتَقَلَّبُ رُؤْيَا رُؤْيَا إِلَى
الْإِنْجَادِ...

هُم لَمْ وَلَنْ وَلَا يَنْسُوا كَيْفَ انْدَحَرَ أَجْدَادُهُمُ الْفَرَنْجَةُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ مِنَ الْقُدْسِ،
لَكِنْ مَارَالُوا يَطْمَعُونَ وَيَطْمَحُونَ إِلَى الْعُودَةِ. فَهَذَا هُمْ عِنْدَمَا دَخَلُوا الْقُدْسَ فِي
12\9\1937 م، قَالَ الْقَائِدُ الْبَرِيطَانِيُّ: "الآن انْتَهتِ الْحُرُوبُ الصَّلِيبِيَّةُ".
وَعِنْدَمَا عَادُوا إِلَى دِمَشْقَ، وَقَفَ قَائِدُهُمْ وَوَضَعَ جِذَاءَهُ عَلَى قَبْرِ صَلَاحِ الدِّينِ
وَقَالَ: "هَذَا قَدْ عُدْنَا يَا صَلَاحُ... عُدْنَا يَا صَلَاحُ الْيُنُوكِ".

الفصل الثاني

برمجة التاريخ المزور وإعادة بثه

أي حقوق يُنادون بها؟ إنها تمثيلية بارعة لقلب المفاهيم، ولقلب قيمنا الثقافية والحضارية بقيمهم، وعلى رأسها قيم إبتين ومن يدعمه. سرفوا تاريخنا المشرق، وسرفوا مخطوطاتنا... سرفوا ما صنع أجدادنا، قلبوا الحق باطلا. فبعدما سرفوا... ما سرفوا، بنوا فينا أفكارا ومفاهيم: أننا نحن العاجزين... المستضعفين... المنهارين... لا يمكن إحيائنا؛ لأننا تافهون! ليس لدينا أدوات التطوير والتمدن؟! إننا نعاج حُمقى!

هذه الأفكار يبثونها منذ زمن ليس بالقصير... وما زالوا! بطرق حديثة مكررة، لخلق في وعي الفرد والمجتمع مفهوم تقبل الآخر؛ لأنه الأعدل والأفهم... لأن الحضارة والثقافة نابعة من عندهم!... عذرا... لا وألف لا... هم الذين سرفوا تاريخنا واستبدلوه بالوهم والانحطاط.

أذكر أنني وأنا يافع، قرأت كل ما كتبت في روايات تاريخ الإسلام لـ (ج. ز) الذي كتب عشرات القصص التاريخية الإسلامية، مثل: موسى بن نصير، طارق بن زياد وغيرهم. وهكذا كانت القصة من مئة صفحة وأكثر، فقط صفحتان قد تكون فيهما واقعية، والبقية تتكلم كيف تقايل موسى بن نصير وطارق بن زياد عند فتح الأندلس...!! والسبب: الجوّاري والنساء والسبايا، ويصور المشاهد التي تصورهن بأدق التفاصيل لتظهر جمالهن، وليبتعد القارئ عن دراسة تاريخنا بصدق، ويقتبل تاريخنا المزور. بالمقابل، يصور جمالهن بشكل لا يتخيله عاقل... وأنا قرأت كل ما كتبت عن تاريخ الإسلام، ووقعت في مصيدته وخبائته. شدّ

انْتِبَاهِي مَا يُصَوِّرُهُ مِنْ مَشَاهِدَ مَكْتُوبَةٍ عَنِ جَمَالِهِنَّ وَمَلَابِسِهِنَّ، وَكَيْفَ يَتَسَاجَرُ
الْقَادَةُ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنْ أَجْلِهِنَّ، وَأَتَهَنَّ السَّبَبُ فِي الْإِنْهِيَارَاتِ وَالْحَسَائِرِ التَّارِيخِيَّةِ.
هَكَذَا تَمَّ غَسْلُ عَقْلِي وَأَنَا يَافِعٌ لَمْ أَتَجَاوَزْ مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا. تَمَّ غَسْلُ
دِمَاعِي... كَرِهْتُ تَارِيخَنَا... مَقْتَهُ... أَهَذَا هُوَ تَارِيخُنَا الَّذِي كَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ
أَعَشَقَهُ؛ لِأَنَّهُ فِي دَمِي وَوَعْيِي؟ صُدِمْتُ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّنِي قَرَأْتُ كُلَّ رَوَايَاتِهِ؛ لِأَنَّهَا
أَثَارَتْ فِي حُبِّ الْإِطْلَاعِ وَمُتَابَعَةِ السَّبَابِيَا وَالْجَوَارِي...!!! لَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ كَرِهْتُ
التَّارِيخَ... كَرِهْتُ أَبْطَالَهُ... كَرِهْتُ مَا قَدَّمُوهُ!!

مَهَلًا... مَهَلًا، لَوْلَا عِنَايَةُ اللَّهِ بِي... أَلْهَمَنِي أَنْ أَقْرَأَ الْكُتُبَ الْأَقْرَبَ لِلصِّدْقِ.
وَهَكَذَا وَعَيْتُ، وَمِنْ ذَاتِي بِفَضْلِ اللَّهِ، فَاتْلَفْتُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَاسْتَبَدَّلْتُهَا بِالْأَصَحِّ.
رُبْدَةُ الْمَوْضُوعِ الَّذِي حَصَلَ مَعِي، وَمُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ عَامًا، يَتَكَرَّرُ عَلَيَّ
أَوْلَادِنَا، بَلِ ازْدَادَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً بِقُوَّةِ الْبَيْتِ الْإِعْلَانِيِّ وَالْفَنَوَاتِ، مِثْلَ: نِيكَ توك...
الَّتِي تَأْتِي بِالْمَعْلُومَاتِ...

يَصِفُونَ الْعَرَبَ وَتَارِيخَهُمْ بِأَبْشَعِ الْأَوْصَافِ!! وَصَفُونَا بِأَنَّنا سَرَقْنَا تَارِيخَ
وَحَضَارَةَ الْيُونَانِ. لَا، لَا يَا سَادَةَ، الْعَرَبُ هُمْ الدَّقَّةُ الَّتِي تُدِيرُ الْأُمَّةَ، وَهُمْ مِنْ أَدْكَى
الشُّعُوبِ، فَاسْتَنْطَاعُوا أَنْ يُبْهَرُوا الْعَالَمَ بِمُكْتَسَفَاتِهِمْ وَاخْتِرَاعَاتِهِمْ، بَيْنَمَا أَوْرُبًا كَانَتْ
تَعِيشُ فِي ظِلَامٍ دَامِسٍ.

- ابْنُ خَلْدُونِ: كَانَ مِنْ مُؤَسِّسِي عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ.
- الْجَزْرِيُّ: أَسَّسَ عِلْمَ الْهَيْدْرُولِيكِ وَالْمِيكَانِيكَ.
- الْحَسَنُ ابْنُ الْهَيْثَمِ: صَاحِبُ الْفَضْلِ فِي صَنَعِ الْكَامِيرَاتِ وَعِلْمِ الْبَصْرِيَّاتِ.
- الْخَوَارِزْمِيُّ: مُؤَسِّسُ عِلْمِ الْجَبْرِ، وَصَانِعُ الْأَرْقَامِ الْعَرَبِيَّةِ وَالصِّفْرِ، وَلَوْلَاهُ
لَمَا وُجِدَ الْكُمْبِيُوتَرُ.

• البِيرُونِي: قَاسَ مُحِيطَ الْأَرْضِ.

• ابْنُ حَيَّانَ: أَسَّسَ عُلُومَ الْكِيمِيَاءِ.

عَشْرَاتُ، بَلْ مِائَتٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ اخْتَرَعُوا وَأَوْجَدُوا عُلُومًا عَظِيمَةً.

الْفَضَاءُ: عَشْرَاتُ الْكَوَاكِبِ وَالْمَجَرَّاتِ أَسْمَاؤُهَا عَرَبِيَّةٌ، وَتُدْرَسُ إِلَى الْآنَ بِهَذِهِ الْمُسَمِّيَّاتِ.

لَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَسْحَ تَارِيخِنَا؛ لِأَنَّهُمْ سَرَقُوا مَا فِيهِ. فَمَنْ أَرَادَ الْحَقِيقَةَ، عَلَيْهِ بِمُرَاجَعَةِ التَّارِيخِ الْمُدَوَّنِ الصَّحِيحِ. إِنَّهُمْ فَتَنُوا بِسَرِقَةِ الْأَثَارِ وَالْخَرَائِطِ؛ فَالْإِدْرِيسِيُّ أَوَّلُ مَنْ رَسَمَ خَرِيطَةَ الْعَالَمِ. كَانُوا قَرِيبًا جِدًّا لَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَغْتَسِلُونَ، إِلَى أَنْ عَلَّمَتْهُمْ الشَّامُ وَأَهْدَتْهُمْ الصَّابُونَ... بَلْ وَعَلَّمَتْهُمْ كَيْفَ يَغْتَسِلُونَ.

هَكَذَا يَبْنُونَ فِي الْإِعْلَامِ أَحْبَبَ الْحَيْلِ وَالِدَهَاءِ، لِإِظْهَارِ النَّفَاهَةِ فِي تَقَافِنَا... فَأَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ وَلَا تَفْهَمُونَ الدِّفَاعَ عَنِ الْأَقْلِيَّاتِ. الْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ هُمْ التَّافَهُونَ... كَلِمَاتٌ ظَاهِرٌ هَا حَقٌّ وَبَاطِنٌ هَا بَاطِلٌ. الْجَوَابُ الشَّافِي: كُلُّ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ سَرَقِهَا لِعَرَبِهَا هِيَ الَّتِي احْتَضَنَتْ وَاسْتَقْبَلَتْ الْأَقْلِيَّاتِ؛ هُمْ الَّذِينَ سَلَبُوا حُقُوقَهُمْ وَدَفَعُوهُمْ لِلْهِجْرَةِ، فَاحْتَضَنَتْهُمْ الْبِلَادُ الْعَرَبِيَّةُ بِكُلِّ حُبٍّ وَعَطْفٍ.

بِسُفُوطِ الْأَنْدَلُسِ، هَرَبَ مِنْهَا الْيَهُودُ، فَاتَّجَّهُوا إِلَى الْمَغْرِبِ وَتُونِسَ وَالشَّامِ.

الْأَرَمَنْ: هَرَبُوا مِنَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى لِتَمْزِيْقِ بِلَادِهِمْ، وَهَاجَرُوا إِلَى الشَّامِ.

الشَّرَاكِسَةُ: هَرَبُوا مِنَ الثُّورَةِ الْمَارِكِسِيَّةِ بِإِشْرَافِ مَارْكَسَ وَلِينِينَ، وَهَاجَرُوا إِلَى الشَّامِ وَالْأُرْدُنِّ.

البُوسَنِيُّونَ: دَمَّرَهُمْ تَيْثُو وَمَزَّقَ أَرَاضِيَهُمْ، وَهَاجَرُوا مِنَ الْبُوسَنَةِ إِلَى دُولِ الْجَوَارِ.

مَاذَا هُمْ فَعَلُوا بِالْبُوسَنَةِ بَعْدَ خَمْسِينَ عَامًا؟ قَتَلُوا شَعْبَهَا وَدَمَّرُواهَا. أَوْ مَاذَا فَعَلُوا بِسُورِيَا وَتَحْتَ إِشْرَافِهِمْ؟ قُتِلَ أَكْثَرُ مِنْ مِثْيُونٍ، وَتَشَرَّدَ نِصْفُ سُكَّانِهَا، وَهُمْ رَاضُونَ!!

يُرِيدُونَ مِنَّا حِمَايَةَ الْأَقْلِيَّاتِ! أَجْدَادُنَا الَّذِينَ احْتَضَنُوهُمْ وَتَرَوُّوهُمْ مِنْهُمْ؟! مَقُولَةٌ ظَاهِرٌ هِيَ جَمِيلٌ وَبَاطِنُهَا لِلتَّمْرِيقِ. وَكَمَا يُقَالُ: "فَرَّقْ تَسُدُّ"، مَقُولَةٌ أَمْنِيَّةٌ اسْتِخْبَارَاتِيَّةٌ طَبَّقْنَاهَا إِنَّكَتِيرًا عِنْدَمَا حَكَمْتَ نِصْفَ الْعَالَمِ. وَلِلْعَلْمِ، مَزَقْتَ إِنَّكَتِيرًا بَاكِسْتَانَ إِلَى قِسْمَيْنِ: بَنْغَلَادِشَ وَبَاكِسْتَانَ، وَضَمَمْتَ إِنَّكَتِيرًا كَشْمِيرَ لِلْهِنْدِ. وَهَكَذَا هُمْ يُمَزَّقُونَ مَا بَقِيَ، وَيُظْهِرُونَ أَنََّّهُمْ يَمْلِكُونَ الرَّحْمَةَ وَالْمُودَةَ!؟

هُمُ الَّذِينَ اسْتَعْمَرُونَا!! وَلَكِنْ لَنْ يَفْدِرُوا الْآنَ... مَا الْعَمَلُ!؟!

سَيَفْدِرُونَ بِطَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ: تَغْيِيرُ الْأَفْكَارِ وَالْمَفَاهِيمِ بِاسْتِخْضَارِهَا مِنْ طَرَفِهِمْ، مُعَلَّبَةٌ بِأَفْكَارٍ وَاهِيَةٍ يَبْنُونَهَا عَلَى أَنَّهَا قِيَمٌ نَقَافِيَّةٌ حَضَارِيَّةٌ لِلْحَدَاثَةِ الْفِكْرِيَّةِ. إِنَّهُ مَكْرٌ عَظِيمٌ: غَسَلُ غُفُولِنَا... غَسَلُ قِيَمِنَا... غَسَلُ مَبَادِينِنَا!!

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال: 30].

لِيَحْصَلَ التَّنَافُرُ وَالتَّنَاحُرُ بَيْنَ أَفْرَادِ مُجْتَمَعِنَا الْوَاحِدِ، يَبْنُونَ التَّطَرُّفَ وَالْعُلُوَّ فِينَا بِصُنْعِ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ الْمُتَمَرِّدَةِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: هَذَا مِنْ عِنْدِكُمْ...!! حَتَّى ظَهَرَتْ ظَاهِرَةٌ "إِسْلَامٌ فُوبِيًا."

هُمُ ظَاهِرًا يُبَادُونَ بِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَالطِّفْلِ وَالْأَقْلِيَّاتِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنََّّهُمْ سَقَّاحُونَ يُرِيدُونَ مَصَالِحَهُمْ أَنْ تَمُرَّ عَلَى أَجْسَادِنَا وَأَجْسَادِ أَوْلَادِنَا. يُرِيدُونَ الْهَيْمَنَةَ وَاسْتِعْبَادَنَا... يَتَذَكَّرُونَ مَاضِيَهُمْ وَيَسْتَرْجِعُونَهُ. بَلْ وَزِيَادَةً فِي ذَلِكَ، الْأَذْرُعُ

الإعلامية لقيادة الدولة العميقة تبت أفكارًا ومفاهيم تُساعد على عملية تحلل وتخلل أربطة أسرتنا، يبت أفكار المُساكنة وزواج المثليين، وإثارة الشهوات غير المقبولة أخلاقيًا، كاللواط والسحاقية وهكذا، وتمرد الأبناء على أسرهم.

هذه قيمهم الحضارية، إنها ما زالت تنفض على الوسائل الإعلامية: من قتل الأولاد وأكلهم، وشرب عرقهم ودموعهم... كلنا سمعنا وقرأنا ماذا كان يُدار في الجزيرة بإشراف إيسنن ومثغليه الذين يسيطرون على الدولة العميقة. هم يريدوننا أن نكون في ذلّ وغلبة في كل شيء، لكي يطبقوا نظرية ابن خلدون في تأثير القوي على الضعيف والهيمنة عليه.

يقول ابن خلدون: "إن المغلوب موع أبدأً بالافتداء بالغالب في شعاره، وزيه وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه، أو انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب... وهذا هو الافتداء... ولذلك ترى المغلوب ينشبه أبدأً بالغالب في ملبسه ومزكبه وسلاحه..." (1).

ويقول ابن خلدون: "إن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها، أسرع إليها الفناء. والسبب بما يحصل في النفوس من التكاثر، ويضعف التماسك والإعتزاز" (2).

وإذا تمعنا فيما يحدث، لو جدنا أنهم يحاولون إخباطنا... والعمل على ذلنا... والهيمنة على كل شيء. يريدوننا أن نتفصص قيمهم الثقافية...!!!

(1) مختصر مقدمة ابن خلدون: اختصرها وعلق عليها د. عبد المحسن بن أحمد العصيمي، ص (94).

(2) مختصر مقدمة ابن خلدون: اختصرها وعلق عليها د. عبد المحسن بن أحمد العصيمي، ص (96).

الفصل الثالث

ظهور جماعاتٍ فكريّةٍ يكفّرون كلّ من كفرهم

إنهم العلماءُيونَ الرافضونَ للسنة، الذين يتلاعبون بجذور الكلمات القرآنيّة لتغيير معناها وفهمها. هم الألحادُ الخفيّ، ليس إلحادًا بقران الله ﷻ، بل أساسه التشكيك في عمليّة فهم النصّ، ويطلبون بترك النصّ للتأويل المطلق. عندئذٍ كلّ شخص يؤوّل النصّ على حسب اعتقاده، فيغيرونه رأسًا على عقب. غايتهم الأساسيّة: نفض بناء الإسلام، وتنويه صورة رسولنا العظيم محمّد ﷺ، وإثارة النعرات الطائفية. إنهم يريدون قلب الحقائق لكيلا يبقى من الإسلام إلا اسمه، كما أخبر النبي ﷺ عن إسلام آخر الزمان: "يُدرّس الإسلام كما يدرّس وشي الثوب".

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 32].

والمصيبة أن بعضهم يطلق على نفسه "القرآنيون"، ولا يعترفون بالسنة جملةً وتفصيلاً. حتّى هؤلاء القرآنيين: لو مات أحدهم، فقط قضيّة الموت في القرآن الكريم لا يوجد فيها تفاصيل غسليه، ولا طريقة دفنه، ولا الصلاة عليه، إلا عن طريق الأحاديث النبوية. هكذا هم، إنهم حالة مرضية استطاعوا أن يستغلّوها - مشغليهم - لأنهم زبد هذا العصر الذين استخدمهم مشغلوهم لتنويه دين الله وسنة رسوله.

الفصل الرابع

فَرَضُ قِيَمِهِمُ الثَّقَافِيَّةِ وَتَغْيِيرُ خَلْقِ اللَّهِ

مَنْ هُمْ؟! لِمَاذَا يُرَادُ لَنَا هَذَا التَّغْيِيرُ؟!... مَاذَا يُحَطِّطُونَ لَنَا؟!

هُمُ الَّذِينَ يَتَحَكَّمُونَ بِالدَّوْلَةِ الْعَمِيقَةِ! وَيُرَادُ لَنَا هَذَا التَّغْيِيرُ الْبِيُولُوجِيَّ وَالطَّبَّعِيَّ وَالْفِكْرِيَّ؛ لِأَنَّهُمْ أَزْهَفُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَزْهَفُوا عُقُولَهُمْ فِي تَغْيِيرِنَا لِمَا يُحِبُّونَهُ وَيَرْضَوْنَهُ، لَكِنْ دُونَ فَايِدَةٍ تُذَكِّرُ.

هُمُ يُرِيدُونَ قِيَمَهُمُ الثَّقَافِيَّةَ وَالْحَضَارِيَّةَ أَنْ تُعْشَعِشَ مُعْتَقِدَاتِنَا... فِي قُلُوبِنَا... فِي طَبَاعِنَا... فِي مَفَاهِيمِنَا. حَاوَلُوا... وَحَاوَلُوا... نَجَحُوا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، لَكِنْ لَنْ وَلَمْ يَكْتَمِلْ لَهُمُ النَّجَاحُ؛ لِأَنَّ مَا عُقِدَ فِي قُلُوبِنَا أَعْظَمُ مِنْهُمْ وَمِنْ ثِقَافَتِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ...!! لِأَنَّ أُمَّةَ الْمَعْرُوفِ. (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) [آل عمران: 110].

يُرِيدُونَ لَنَا تَغْيِيرًا فِي الْبِيُولُوجِيَا الْجِسْمِيَّةِ لِمَا تَحْمِلُ مِنْ مُورَثَاتِ سُلُوكِيَّةٍ؟ مَا هَذَا الَّذِي يُقَالُ؟ هِيَ الْحَقِيقَةُ الصَّمَاءُ الْبَكْمَاءُ!...

الآن، وَبِأَعْظَمِ مُخْتَبَرَاتِهِمْ، وَبِقِيَادَةِ أَعْظَمِ دُولِهِمْ، وَبِإِشْرَافِ مُشْعَلِيهِمْ، يُرِيدُونَ تَغْيِيرَ الْخَرِيْطَةِ الْوَرَاثِيَّةِ لِمُورَثَاتِنَا عَبْرَ تَصْنِيْعِ لُقَاحَاتٍ ظَاهِرُهَا مُضَادَّةُ الْجَرَائِمِ وَرَافِعَةُ لِلْمَنَاعَةِ، وَبَاطِنُهَا تَغْيِيرُ بَعْضِ الْمُورَثَاتِ الْجِسْمِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ لِإِنْتِاجِ مَنْظُومَةٍ طَبَّعِيَّةٍ وَجِسْمِيَّةٍ تَتَمَاشَى مَعَ أَطْمَاعِهِمْ وَعَدَائِهِمْ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِسَيْطَرَةِ جُنُودِ إِبْلِيسَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى إِتْمَامِ هَذَا الْمَوْضُوعِ. (وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ) [النساء: 119].

لَيْسَ فَقَطْ بِالْوَشْمِ وَالْوَشْرِ وَتَنْمِيسِ الْحَوَاجِبِ، لَآ... بَلْ تَغْيِيرُ فِي تَحْوِيلِ
الْهَرْمُونَاتِ الْجِينِيَّةِ، وَإِظْهَارِ الشُّذُوحِ الْجِنْسِيِّ، وَالْحَمَلِ الْخَارِجِيِّ مِنْ دُونِ مَعْرِفَةِ
الْأَبِ، وَتَغْيِيرِ كَامِلِ الْوَجْهِ إِلَى وُجُوهِ شَيْطَانِيَّةٍ مُرْعِبَةٍ، وَيَتَقَمَّصُونَ مَشْيَ الْكِلَابِ فِي
الطَّرَفَاتِ مَعَ جَنَازِيرَ تُلْفُ رِقَابَهُمْ!!

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 43].

لَكِنَّ الْبَلَاءَ الْأَعْظَمَ الْآنَ هُوَ تَغْيِيرُ الْخَرِيطَةِ الْوَرَاثِيَّةِ. وَأَعْظَمُ مُخْتَبَرٍ فِي تَغْيِيرِ
الْمُورَثَاتِ وَتَغْيِيرِ الْخَرِيطَةِ الْوَرَاثِيَّةِ مَوْجُودٌ فِي مَوْقِعِ "دِيمُونَةَ". أَنْظِمَةُ سِرِّيَّةٌ،
غَايَتُهَا تَحْرِيفُ وَعَمَلُ طَفَرَةٍ، أَيْ تَشْوِيهِ لِبَعْضِ الْمُورَثَاتِ يُؤَدِّي إِلَى تَغْيِيرٍ فِي الْمِرَاجِ
وَالْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، فَيُظْهِرُ انْفِعَالَاتٍ لَا مُبَرَّرَ لَهَا تُؤَدِّي إِلَى اسْتِنزَافِ
طَاقَةِ الْجِسْمِ. نَتِيجَةُ ذَلِكَ: يَرْتَفِعُ هَرْمُونُ الْأَدْرِينَالِينِ، يُؤَدِّي إِلَى الْفَلَقِ وَالْأَرْقِ،
وَصُعُوبَةٍ فِي التَّرْكِيزِ، إِضَافَةً لِتَسْرِيْعِ ضَرْبَاتِ الْقَلْبِ وَالتَّنَفُّسِ. وَهَرْمُونُ
التُّورَادْرِينَالِينِ - وَيُسَمَّى هَرْمُونُ الْبِقَظَةِ وَالْإِنْتِيَاهِ - يُؤَثِّرُ عَلَى الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ
فَيَزِيدُ مِنْ مُسْتَوَى الْفَلَقِ وَالتُّوتَرِ وَالصُّدَاعِ إِذَا اسْتَمَرَ فِي الِازْتِفَاعِ، مِمَّا يُسَاهِمُ فِي
صُعُوبَةِ الِاسْتِرْحَاءِ، كَأَنَّهَا مُخَدَّرَاتٌ.

ازْتِفَاعٌ فِي الْكُورْتيزُونِ وَتَغْيِيرُ الْمُورَثَاتِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ الْإِنْجَابِ. وَمَا
مَعْنَى عَدَمِ الْإِنْجَابِ إِذَا أُخِذَ لِقَاحٌ، وَكَانَتْ حَقِيقَتُهُ التَّلَاعُبُ بِالْمُورَثَاتِ لِعَدَمِ الْإِنْجَابِ
وَتَشْوِيهِ الْأَجِنَّةِ؟!

تَصْنِيعُ بُدُورٍ مُعَدَّلَةٍ وَرَاثِيًّا تُؤَدِّي إِلَى التَّلَاعُبِ بِكَمِّيَّةِ الْمَوَادِّ الْكِيمِيَايِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ
الَّتِي تُفْرَزُهَا الْحَوَيْصَلَاتُ الْعَصَبِيَّةُ فِي الْمَشَابِكِ الْعَصَبِيَّةِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، مِمَّا يُؤَدِّي
ذَلِكَ إِلَى التَّغْيِيرِ فِي إِفْرَازِ هَذِهِ الْمَوَادِّ عَلَى الْحَالَةِ الْجِسْمِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، مِثْلَ
الدُّوبَامِينِ وَالسِّيْرَتُونِينِ، بِطَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ.

لِمَاذَا كُلُّ هَذَا؟

بِبَسَاطَةٍ شَدِيدَةٍ... أَوْجَدَ اللَّهُ الْخَيْرِيَّةَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَقَطُّ، ضَاقَتْ نُفُوسُهُمْ
وَأَعْيَتْهُمْ حَسَدًا وَحِفْدًا عَلَيْنَا. كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ عَنْهُمْ: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ
فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79].

هُمُ أَشَدُّ أَعْدَائِنَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: 82]. فَكَيْفَ يَتَمَنَّوْنَ الْخَيْرَ لَنَا، وَقَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ أَنَّ الْخَيْرِيَّةَ لِهَذِهِ
الْأُمَّةِ، فَرَادَ مَكْرَهُمْ... حِفْدَهُمْ... حَسَدَهُمْ. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء:
44]. فَلَا يَتَمَنَّوْنَ الْخَيْرَ لَنَا مُطْلَقًا. إِنَّهُ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ مِنَ اللَّهِ ﷻ. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105].

هِيَ مَعْرَكَةٌ فِكْرِيَّةٌ تُبْتُ لِضَرْبِ الْوَعْيِ وَإِخْمَادِهِ وَأَنْجِدَارِهِ إِلَى الْحَضِيضِ. هَكَذَا
هُمُ يُرِيدُونَ!! وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُدَبِّرُ كُلَّ
أَمْرٍ بِحِكْمَتِهِ وَبِعَظَمَتِهِ، هِيَ مَشْبِيهُةُ اللَّهِ وَإِرَادَتُهُ. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29].

الفصل الخامس

ظَاهِرَةٌ قَضْمُ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ

نتيجة لوجود قوارض عملاقة تأكل ما تبقى من العلاقات الاجتماعية، وتقطع شبكات التواصل التي يقوم عليها المجتمع، مما يؤدي إلى التصادم وتناحر: إما طبقي، أو مالي، أو اجتماعي، ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية. فيظهر التناهد والعداوة والبغضاء نتيجة موت الحقوق والواجبات الإنسانية والاجتماعية قبل الحقوقية.

فَعِنْدَمَا يَدْخُلُ الْمَرَضُ إِلَى الْجِسْمِ، يَتَوَقَّفُ هَذَا الْجُزْءُ عَنِ الْعَمَلِ، وَقَدْ يَحْدُثُ الشَّلَلُ فِي الْعَصَبِ الْوَجْهِيِّ، فَلَا تَمُرُّ السِّيَالَاتُ الْعَصَبِيَّةُ. هَكَذَا تُصْبِحُ مَنْظُومَةُ الْوَعْيِ الْمُجْتَمَعِيِّ هَزِيلَةً لِفَقْدَانِ التَّوَارُنِ بَيْنَ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَلَا سِتِيْلَاءِ حَيْثَانَ الْمَالِ وَافْتِرَاسِهِمُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانَ. انْهِيَارٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهَا الْمُجْتَمَعُ. (كُلُّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) [يونس: 49]؛ لِتَوَقَّفِ وَظِيْفَتِهِ... لَا حَيَاةَ فِيهِ.

القوارض قضموا الشبكة، مما يتسبب بكارثة أخلاقية واجتماعية وإدارية. فلا يوجد من يتحمل المسؤولية: الكل يلعب، الكل يرتشي، الكل يهرب من المسؤولية. لكنهم منافقون؛ هم يحملون المسؤولية الكبرى فيما حصل، لأنهم يحملون كلهم النفس الأمارة بالسوء، التي تحمل كبر إبليس، وحسد قابيل، وعثنو عاد، وطغيان نمرود، وتمرد الوليد بن المغيرة، وجهل أبي جهل. إنهم يحملون الأنا المتمردة. فكلمًا زاد الخواء الداخلي، كلما ازداد تسرطن الأنا لملء الفراغ الظلامي المنسلط المفترس المستكبر. وها هو القرآن الكريم يصور فرعون ووعيه المنسلط واستكباره في

الأرض: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29]. فَوَصَلَ اسْتِعْلَاؤُهُ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24].

فَكُلَّمَا انزَلَتْ فَضَايِلُ السُّلُوكِيَّةِ انْحِدَارًا، كُلَّمَا انزَلْتِ وَتَفَكَّكْتَ الشَّبَكَةَ الإِجْتِمَاعِيَّةَ. وَهَذَا مَا سَيُؤَدِّي لِأَحَقًّا لِانْهِيَارِ الْمُنظُومَةِ الإِدَارِيَّةِ بِالْكَامِلِ؛ لِأَنَّهُمْ أَضَاعُوا الْحُقُوقَ وَالْوَاجِبَاتِ، وَالْكَُلُّ يَدَّعِي عَدَمَ تَحْمُلِ الْمَسْئُولِيَّةِ.

وَتَحْكِي الْقِصَّةَ أَنَّ مَلِكًا أَرَادَ اخْتِبَارَ مَحَبَّةِ شَعْبِهِ لَهُ، فَتَصَبَّ فِي الْمَيْدَانِ الْعَامِّ لِلْبَلَدِ حَوْضًا كَبِيرًا، وَطَلَّبَ مِنْ كُلِّ فَرْدٍ عُرْبُونًا لِحُبِّهِ: فَذَنَّا صَغِيرًا مِنَ الْعَسَلِ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، كَانَ الْحَوْضُ فَارِعًا؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فَكَّرَ بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ: "وَمَا الَّذِي سَيُؤَثِّرُ فِي الْوَعَاءِ الْكَبِيرِ إِنْ نَقَصَ مِنْهُ قَدْحِي؟! " هَكَذَا دَخَلَتْ اللَّامْبَالَاةُ وَالِاسْتِخْفَافُ بِالْأَوْامِرِ، فَضَاعَتِ الْوَاجِبَاتُ وَالْحُقُوقُ؛ لِأَنَّهُمْ خَافُوا مِنَ الْقَوَارِضِ الَّتِي تَعَبَتْ بِهِمْ، كَانَتْهُمْ إِلَهَةً. كُلُّ قَارِضٍ يَقْرِضُ مَجْمُوعَتَهُ بِذَكَاءٍ لَافِتٍ لِلنَّظَرِ، وَيَتَّهَمُ الْآخَرَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْكُلُ حُقُوقَهُ وَحُقُوقَ مَنْ تَوَلَّاهُمْ، فَيَنْشَأُ الْعُنْفُ لِأَخْذِ الْحُقُوقِ... وَيَنْشَأُ الْعُنْفُ الْمُضَادُّ.

كُلُّهُمْ يَلْعَبُونَ لُعْبَةَ الْقَطِّ وَالْفَارِ، بَلْ وَيَتَبَادَلُونَ الْأَدْوَارَ، وَيَتَّهَمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمَا آلَ إِلَيْهِ الْوَضْعُ مِنَ النَّاحِيَةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالِاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَالْكَُلُّ يَدَّعِي بِأَنَّهُ غَيْرُ مَسْئُولٍ... لَا، لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ. ﴿أَوَلَمَّا أَصَابْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165].

كُلُّهُمْ يَعْشَقُونَ التَّعَبِيَّةَ، إِنَّهُمْ كَالْقَطِيعِ. لَكِنَّ الْخَطُورَةَ أَيْنَ؟! عِنْدَمَا يَبْدَأُ التَّوَرُّمُ السَّرَطَانِيَّ بِأَخْذِ مَفْعُولِهِ، فَتُصْبِحُ الْعُقُولُ خَرِبَةً، فَلَا وَعْيَ وَلَا إِدْرَاكَ، بَلْ أَهْوَاءٌ وَسَهَوَاتٌ مَاجِنَةٌ. مَفَادَهَا – تَقُولُ الْفِكْرَةَ – الدِّقَاقُ عَنِ النَّفْسِ – يَتَوَهَّمُونَ هَذَا – فِكْرَةٌ قَاتِلَةٌ تَتَخَمَّرُ رُويْدًا... رُويْدًا، تَتَعَشَّفُهَا الْعُقُولُ الْخَرِبَةُ، تَتَوَقَّدُ فِي الْقُلُوبِ

الْحَاقِدَةِ، تَحْمِلُ أَفْكَارًا شَيْطَانِيَّةً. تَكْبُرُ لِتُصَيِّحَ الْفِكْرَةَ الْمَطْرُوحَةَ الْأَصْعَبَ
وَالْأَخْطَرَ، تَقُولُ: "اقْتُلْ قَبْلَ أَنْ تُقْتَلَ."

تَعْمُ عُمُومَ الْمُتَخَاصِمِينَ مِنَ الْحَيَاتَانِ وَالْقَوَارِضِ، فَتَنْتَشِرُ هَذِهِ الْمَقُولَةَ وَالْمَفَاهِيمَ
الْقَاتِلَةَ انْتِشَارَ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ. وَإِنْ سَأَلْتُمْ، لَيَقُولَنَّ: الدِّفَاعُ عَنِ النَّفْسِ، عَنِ
الْأَصْحَابِ، عَنِ الْعَرَضِ وَالْمَذْهَبِ!!! وَالْحَقِيقَةُ كَانَتْ أَيَّامًا سُودَاءً، فِيهَا عَجَبُ
الْعَجَابِ مِنَ الْقَتْلِ وَهَتِكِ الْأَعْرَاضِ، وَاسْتِبْدَادِ الْقَوَارِضِ، وَسَلْبِ الْكِرَامَةِ.

الْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ يَسْتَمِينُونَ لِإِحْدَاثِ الْمُوَامِرَاتِ لِكَيْ يَبْقُوا فِي الصَّدَارَةِ لِيُدِيرُوا اللَّعْبَةَ.
وَعَلَيْهِ، يُطَبِّقُونَ مَبْدَأَ هِنْدَرَ الشَّهِيرِ: "الْهُجُومُ خَيْرٌ وَسِيْلَةٌ لِلدِّفَاعِ". إِنَّهَا حَلْفَةٌ
شَيْطَانِيَّةٌ دَائِرِيَّةٌ الشَّكْلِ، لَا تُعْرَفُ مِنْ أَيْنَ وَكَيْفَ بَدَأَتْ! مُحَمَّلَةٌ بِأَفْكَارٍ وَمَفَاهِيمٍ
مُقْبِلَةٍ، تَنْسَرِبُهَا جَمَاعَاتُهُمْ، وَتَنْرَسِخُ فِي الْقُلُوبِ. وَعَمَلِيَّةُ نَزْعِ مَا تَنْرَسِخُ فِي الْقَلْبِ
أَصْعَبُ بِكَثِيرٍ مِنْ قَلْعِ الْعَقْلِ. إِنَّ نَزْعَ عُقُولِهِمْ أَهْوَنُ مِنْ نَزْعِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ الَّتِي
اسْتَقَرَّتْ فِي قُلُوبِهِمْ.

يَقُولُ ابْنُ خَلْدُونَ: "إِذَا تَأَدَّنَ اللَّهُ تَعَالَى بِانْقِرَاضِ الْمُلْكِ مِنْ أُمَّةٍ، حَمَلَهُمْ عَلَى
ارْتِكَابِ الْمَذْمُومَاتِ، وَانْتِحَالِ الرَّدَائِلِ وَسُلُوكِ طُرُقِهَا، فَتَفْقُدُ الْفَضَائِلَ السِّيَاسِيَّةَ
مِنْهُمْ جُمْلَةً، وَلَا تَزَالُ الْأُمَّةُ فِي انْتِقَاصِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمُلْكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَيَتَبَدَّلَ
بِهِ سِوَاهُمْ، لِيَكُونَ نَعِيًّا عَلَيْهِمْ فِي سَلْبِ مَا كَانَ اللَّهُ فَدَّ اتَاهُمْ مِنَ الْمُلْكِ، وَجَعَلَ فِي
أَيْدِيهِمْ الْخَيْرَ. فَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا
فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا). [الإسراء: 16]."⁽¹⁾

عَلَامَةٌ فَارِقَةٌ: كُلَّمَا انْزَلَّتِ الْفَضَائِلُ وَالسُّلُوكِيَّاتُ وَانْهَارَتْ، كُلَّمَا انْقَرَضَ
الْمُلْكُ وَزَالَ عَنْهُمْ. وَهَذَا مَا حَصَلَ فِي بِلَادِنَا، فَانْتَعَلَتْ النَّارُ وَاسْتَمَرَّتْ حَلْفَةٌ

(1) مختصر مقدمة ابن خلدون: اختصرها وعلق عليها د. عبد المحسن بن أحمد العصيمي، ص (88-89).

الْعُنفِ حَوَالِي أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا. حَلَقَةُ النَّارِ... حَلَقَةُ الشَّيْطَانِ... حَلَقَةُ أَكَلَتِ
الْأَخْضَرَ وَالْيَاسَ!!

مَا الْعَمَلُ؟ كَيْفَ يُمَكِّنُ تَحْطِيمَ هَذِهِ الْحَلَقَةِ الْمُعْلَقَةِ مِنَ الْعُنفِ الدَّائِمِ؟

لَا تَبْنِي إِلَّا بِتَحْطِيمِ الْأَفْكَارِ وَالْمَفَاهِيمِ الَّتِي اعْتَقَدُوهَا وَاعْتَقَفُوهَا!! وَهَذَا لَا وَلَنْ
يَبْنَى... لِأَنَّ الْقَوَارِضَ وَالْحَيَاتَانَ وَالتَّعَالِبَ الَّذِينَ يَتَحَكَّمُونَ بِهَذِهِ الْحَلَقَةِ لَنْ يَقْبَلُوا أَنْ
تَتَوَقَّفَ؛ فَتَتَوَقَّفَ مَعَهَا مَصَادِرُ دَخْلِهِمْ مِنَ الْمَالِ وَمِنْ بَيْعِ الْمُخَدَّرَاتِ. إِنَّهُمْ...!؟

لَكِنَّ هُنَاكَ نُورًا أَتَى مِنَ الطَّرَفِ الْآخِرِ، فَحَطَّمُوا هَذِهِ الْحَلَقَةَ دُونَ رَدِّهِ فِعْلًا
تُذَكِّرُ!... كَسَرُوا حَلَقَةَ الْعُنفِ بِجُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ: "أَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ". فَكَانَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ ﷻ
وَحِكْمَتُهُ وَتَدْبِيرُهُ عَظِيمَةً. انْكَسَرَتْ... تَبَعَثَتْ... وَانْكَسَرَ مَعَهَا أَمْثَالُهَا... وَاسْتَبْدَلَتْ
بِأَهْلِ الْأَبْدَالِ، شِعَارُهُمْ: ﴿ادْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: 34].

فَبَدَأَتْ الْحُقُوقُ تَعُودُ لِأَصْحَابِهَا... بَدَأَتْ الْوَأَجِبَاتُ تَظْهَرُ... سُبْحَانَ اللَّهِ، فَازْدَادَ
الْخَيْرُ نَتِيجَةً يُقَاطِ الضَّمَائِرِ... الْكُلُّ شَعَرَ بِحَسَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ... الْكُلُّ شَعَرَ بِأَنَّهُ دُو
قِيمَةٍ... الْكُلُّ شَعَرَ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ لِلْجَمِيعِ، فَلَا الْغَاءَ لِلْآخِرِ، وَلَا الْغَاءَ لِلْحُقُوقِ
وَالْوَأَجِبَاتِ، وَالْكُلُّ سَوَاسِيَةٌ، لَا فَرْقَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ. وَهَذَا قَدْ عَادَ الْوَعْيُ إِلَى
بُوصَلَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ: لَا بُدَّ مِنَ التَّعَايُشِ... لَا بُدَّ مِنَ التَّعَايُشِ.

وَأَتَّجَهَتْ الْقُلُوبُ وَالْعُقُولُ، وَهِيَ فِي حَالَةٍ اسْتِعْرَابٍ شَدِيدٍ، إِلَى الْمُصَالِحَةِ. أَلْغِي
الْإِسْتِبْدَادَ.. أَلْغِيَتْ رُبُوبِيَّةَ الظَّالِمِ الَّتِي كَانَ يُنَادِي بِهَا: "أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى". مَنْظُومَةٌ
فَكْرِيَّةٌ شَيْطَانِيَّةٌ يُدِيرُهَا كُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْقَوَارِضِ وَالْحَيَاتَانَ، بَعْضُ النَّظَرِ
عَنْ لَوْنِهِ وَدِينِهِ... تَضَخَّمَتْ كَثِيرًا... فَضَمَّتِ النَّسِيجَ الْاجْتِمَاعِيَّ، وَلِلْأَسْفِ مَرْقَتُهُ.
إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْوَأَجِبَ مُطْلَقًا، إِنَّهُ اسْتِعْصَاءٌ عَقْلِيٌّ مُتَسَرِّطُنْ، أَصْعَبُ مِنْ اغْتِلَالِ
الْعَضَلَةِ الْقَلْبِيَّةِ عَلَى الْإِنْسَانِ. حَيْثَانُ الرِّشْوَةِ... حَيْثَانُ النَّهْبِ وَالْإِخْتِلَاسِ. لَكِنَّ

تَحَطَّمتِ الحَلْفَةُ، وَالْغَيْتِ مَعَانِي القَهْرِ، وَالْعُدْوَانِ، وَالْمَكْرِ، وَالْمُنَاكِدَةِ... انْقَلَبَتْ كُلُّ
المَفَاهِيمِ بِاتِّجَاهِ المُصَالِحَةِ، وَالتَّعَامُلِ، وَالمُسَاوَاةِ، وَالعَدْلِ.

وَمَازَالَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَمِنْ كُلِّ الأَطْرَافِ، يُحَاوِلُونَ صُنْعَ مَكِيدَةٍ هُنَا وَهُنَا...
يَمَكُرُونَ هُنَا وَهُنَا. لَكِنَّ حَلْفَةَ العُنْفِ انْكَسَرَتْ، وَلَنْ تَعُودَ بِإِذْنِ الله... الأَكْثَرِيَّةُ قَبِلُوا
مَبْدَأَ العَدَالَةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ لِلْجَمِيعِ... لِلْجَمِيعِ. أَكْرَرُ: مَازَالَ مَنْ يَحْمِلُ حَالَةَ فِقْدَانِ
الْوَعْيِ، بَعْضُهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى مَبْدَأٍ: "إِنْ لَمْ تَقْتُلْ تُقْتَلْ."

هَذَا مَا حَصَلَ بَيْنَ ابْنِي آدَمَ. هُوَ صِرَاعُ الحَقِّ وَالبَاطِلِ. العَاقِلُ أَقْرَبُ لِتَحْطِيمِ حَلْفَةِ
العُنْفِ. ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ
رَبَّ العَالَمِينَ﴾ [المائدة: 28].

تَعَالَوْا كُلُّنَا نُرِدِّدْهَا: "مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ". تَعَالَوْا مَعًا لِتَحْطِيمِ الأَفْكَارِ
الْوَاهِيَةِ... وَالمَفَاهِيمِ الخَاوِيَةِ الَّتِي عَشَعَشَتْ فِي عُقُولِنَا وَقُلُوبِنَا، أَسَاسُهَا الحِقْدُ
وَالكِرَاهِيَةُ. تَعَالَوْا يَدًا بِيَدٍ، أَنْ نَكُونَ مِنْ أَهْلِ السَّلَامِ وَالمَحَبَّةِ. سَنَعِيشُ مَعًا، شَاءَ مَنْ
شَاءَ وَأَبَى مَنْ أَبَى. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140].

تَعَالَوْا مَعًا لِنُؤَسِّسَ لِمَفْهُومِ الوَعْيِ الفُرْدِيِّ وَالمُجْتَمَعِيِّ، يَعْتمِدُ عَلَى المَبَادِيِ
الأَخْلَاقِيَّةِ وَالمُطَابَعِ السَّلِيمَةِ الحَسَنَةِ، الَّتِي تُفَرِّزُ سُلُوكًا قَيِّمًا يُسَاعِدُ عَلَى يَقْظَةِ
مَنْظُومَةِ الوَعْيِ، لِكَيْ نَعِيشَ بِأَمْنٍ وَأَمَانٍ، نَبْنِي حَاضِرَنَا... وَمُسْتَقْبَلَنَا بِمَا أَوْعَيْنَاهُ
مِنْ عُلُومٍ وَمَعْلُومَاتٍ وَمَفَاهِيمٍ وَتَقَاتٍ طَيِّبَةٍ... سَلِيمَةٍ، نَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ نَعِيشَ حَيَاةَ
كَرِيمَةً بِأَمْنٍ وَأَمَانٍ.

الباب الرابع
يقظة الوعي الفردي
وأثره على المجتمع

الفصل الأول الوعي الذاتي

الوعي الذاتي هو وعي الفرد بما أوعاه، فينادى باسمه. فمن أوعى الإيمان، ينادى أنه من أهل الإيمان. ومن أوعى التقوى، ينادى أنه من أهل التقوى. ومن أوعى العلم، ينادى أنه عالم. ومن أوعى المعرفة والتفافة، ينادى أنه مُتَّفَعٌ.

تسمو الذات... وتسمو الثقة بالنفس... إنها مُرْتَكَرَاتٌ أَسَاسِيَّةٌ لِيَقْظَةِ الْوَعْيِ. فَمَنْ مَلَكَهَا وَادَارَهَا بِدِكَايٍ وَتَعْقُلٍ، أَصْبَحَ مِنْ أَوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ فِكْرًا صَانِبًا لِلْبِنَاءِ، يَعْرِفُونَ مَعْنَى التَّدْبِيرِ وَالِاتِّعَاطِ، وَيَعْرِفُونَ مَعْنَى عَاقِبَةِ الْأُمُورِ؛ لِأَنَّ نَمَطَ تَفْكِيرِهِمْ عَالِي الْمُسْتَوَى، خَاطَبَهُمْ رَبُّ الْعِزَّةِ بِأَوْلِي الْأَلْبَابِ.

لَكِنَّ زِيَادَةَ الْإِرْتِقَاءِ وَيَقْظَةِ الْوَعْيِ بِحَاجَةٍ إِلَى:

✓ الإقبال على العلوم كافة، الشرعية والعلمية، وزيادة المعرفة مما يساعده على يقظة الوعي وفهم الذات، وأخذ القرارات الصائبة الإبداعية في تنفيذ الأفكار الخلاقة والمبدعة، ورسم الحلول المستفيلية بتصورات ذهنية مبدعة، لينفذها بعد أن تتحول إلى أفكار مبدعة. ويرتقي من حمل هذه المعطيات ليصبح مؤثرًا يحمل بصمة التفاؤل بالعمل المبدع... بالحياة المتوازنة، بالمعتقد الإيماني السليم، فتحد من غرور الذات، وغرور الأنا، وتتحوّل إلى السمع والطاعة للخالق. عندما تنضبط النفس وتكون الأقرب للنفس اللوامة التي تلوم صاحبها بين الحين والآخر.

✓ شدة التركيز على ما استوعبه العقل بعد فلترة الأفكار المتعقبة، لكي يكون ما أرسفه الوعي هو زبدة العلوم، والمعرفة، وتمام الأخلاق، والسلوكيات.

تُوضَعُ فِي الذَّاكِرَةِ الْقَلْبِيَّةِ الَّتِي تَعِي هَذِهِ الْمَفَاهِيمَ، ضِمْنَ سَلَةِ الْمُعْتَقَدِ
الإيمانيِّ، وَتَتَمَرَّكُزُ فِيهِ التَّقْوَى. قَالَ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ
وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ".

✓ الإبتعادُ عَنِ إِفْحَامِ الْأَفْكَارِ الْفَهْرِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَالْأَفْكَارِ الْوَسْوَاسِيَّةِ لِإِنْهَائِكَ
الْقُرْدِ مِنَ الْإِضْطِرَابِ الْقَهْرِيِّ وَالْقَلْقِ وَالضَّغْطِ النَّفْسِيِّ، وَالشُّعُورِ
بِالْإِرْتِبَاكِ وَعَدَمِ وُضُوحِ الرُّؤْيَا النَّفْكَرِيَّةِ، وَخَلْطِ الْمَفَاهِيمِ لِكَثْرَةِ الْمَشَاعِرِ
السَّلْبِيَّةِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ الْغَضَبِيَّةِ. كُلُّ هَذَا يُسَاعِدُ عَلَى تَلْبُدِ الْوَعْيِ وَحَجْزِهِ
وَاعْتِقَالِهِ فِي مَسَالِكِ تَأْفِيهِ مُضِرَّةٍ بِهِ، مِمَّا يُسَبِّبُ إِنتَاجَ تَخَيُّلاتٍ وَتَصَوُّرَاتٍ
وَهَمِيَّةٍ، مُثَبِّطَةٍ، قَاهِرَةٍ، سَلْبِيَّةٍ، تُعْبِقُ عَمَلِيَّةَ التَّرْكِيزِ وَالْإِبْدَاعِ. إِنَّ يَقْظَةَ
الْوَعْيِ وَالْإِرْتِيَاخَ لِلذَّاتِ لِإِحَاطَتِهِ بِالْمَشَاعِرِ الْإِيجَابِيَّةِ، يُحَقِّقُ التَّوَازْنَ
النَّفْسِيِّ وَالْعَقْلِيِّ وَالْأَخْلَاقِيَّ، لِيَكُونَ مِثَالًا يُحْتَدَى بِهِ بَيْنَ أَقْرَانِهِ، وَلَا يَهْمُهُ
الْمُكَافَأَتُ وَلَوْ كَانَتْ جَمِيلَةً؛ لِأَنَّهُ يَعْمَلُ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ لَوْجِهِ اللَّهُ ﷻ، وَيُرِيدُ
دَائِمًا: "إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ". هُنَا يَكُونُ الْإِبْدَاعُ بِعَمَلِ الْخَيْرِ وَقَوْلِ
الْخَيْرِ، وَلَا يَنْتَظِرُ الْجَزَاءَ مِنْ أَحَدٍ وَلَا شُكُورًا، فَفَطِ الرِّضَا مِنْ خَالِقِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

✓ إِنَّ ارْتِقَاءَ الْإِنْسَانِ بِوَعْيِهِ هُوَ ارْتِقَاءٌ لِذَاتِهِ... هُوَ ظُهُورُ الْأَنَا لَكِنْ دُونَ
الْعُرُورِ. وَعِنْدَمَا تَلْتَقِي تَقَافُهُ الْوَعْيِ مَعَ النَّاسِ بِمَزَاجِ الْحُبِّ وَالْمَشَاعِرِ
الصَّادِقَةِ، تَرْتَقِي يَقْظَةُ الْوَعْيِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ وَعْيُهُ لِحُدْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ،
وَلِحُدْمَةِ دِينِهِ، فَهُوَ مُجَاهِدٌ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ. هَذِهِ هِيَ النِّقَّةُ بِالنَّفْسِ، هَكَذَا
تَظْهَرُ وَتَكْبُرُ مَمْرُوجَةً بِالتَّقْوَى. يَقْظَةُ الْوَعْيِ تَنْشَكُلُ بِمَا جَمَعَ وَأَوْعَى
صَاحِبُهُ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالْمَفَاهِيمِ الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ الَّتِي اسْتَفْبَلَتْهَا الْبَوَابَاتُ
الْعَقْلِيَّةُ الْإِدْرَاكِيَّةُ كَصُورٍ ذَهْنِيَّةٍ، تَحَوَّلَتْ إِلَى أَفْكَارٍ. مِنْ هُنَا نَبْدَأُ.

✓ فَيَقْطَعُ الْوَعْيَ لَا تَكْتَمَلُ إِلَّا بِوُجُودِ عَوَامِلِ ضَائِبَةٍ لِاسْتِقْبَالِ هَذِهِ الْبَوَابَاتِ الْعَقْلِيَّةِ. أَهْمُهَا: فَلْتَرَهُ مَا تَسْتَقْبِلُهُ الْبَوَابَاتُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ وَمَعَارِفٍ وَعُلُومٍ. فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ الضَّائِبِ الْوَاعِظِ الْعَقْلِيِّ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، يَمْنَعُ الْمَحْظُورَ، لِكَيْ تُمَرَّرَ كُلُّ الرِّسَائِلِ وَالْمَعْلُومَاتِ نَفِيَّةً صَافِيَةً، كَأَثَرِ يَتَمُّ اسْتِيعَابُهَا وَتَمْرِيرُهَا إِلَى الدَّاكِرَةِ الدِّمَاغِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ. فَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الْأَمْرِ إِيمَانُهُ صَادِقًا وَمُتَدَقِّقَ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَمْلِكُ وَعْيًا يَقْطَعُ، فَطِنًا، نَبِيهَا، يَعْرِفُ تَدْوِيرَ الرِّوَايَا، يَعْرِفُ مَتَى يُصَحِّحُ الْمَعْلُومَةَ، مَتَى يَنْطِقُهَا، مَتَى يُخْفِيهَا... مَتَى وَكَيْفَ يَقُولُ كَلِمَتَهُ... يُحَلِّلُ مَا يَسْمَعُ وَمَا يُقَالُ وَمَا يَقُولُ. عِنْدَيْدِ تَصْبِيحِ يَقْطَعُ وَعْيِهِ جُزْءًا مِنَ الذَّاتِ وَالْأَنَا الْحَمِيدَةِ، فَتَنْطَبِقُ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِذَا عَمِلَ بِهَا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139].

لَا يَمْنَعُ مُطْلَقًا أَنْ يَعْتَرَّ الْمَرْءُ بِمَا يَحْمِلُ فِي وَعْيِهِ، بِمَا يَسْتَوَعِبُ فِي عَقْلِهِ، بِمَا يَحْفَظُ فِي دَاكِرَتِهِ الْقَلْبِيَّةِ مِنْ أَرْشِيفِ مَعْلُومَاتٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ. إِنَّهَا الْيَنَابِيعُ الْأَسَاسِيَّةُ الَّتِي تُرْفِدُ الْوَعْيَ وَتَجْعَلُهُ فِي الْعَلِيِّينَ. عِنْدَيْدِ تَقَطُّفِ نِمَارِهِ مِنْ:

- **يَنْبُوعِ الدِّينِ:** فَكَلَّمَا كَانَ الْإِيمَانُ صَاحِحًا، وَالْأَخْلَاقُ وَالسُّلُوكِيَّاتُ حَسَنَةً، كَلَّمَا كَانَ الْوَعْيُ يَقْطَعًا.

- **يَنْبُوعِ الْعِلْمِ:** كَلَّمَا اسْتَقْبَلَ هَذَا الْإِنْسَانُ الْعِلْمَ النَّظْرِيَّ وَالْعَمَلِيَّ، كَلَّمَا تَسَلَّحَ الْوَعْيُ بِالْعِلْمِ وَسَمَا.

- **يَنْبُوعِ سَوِيَّةِ الطَّبَاعِ السُّلُوكِيَّةِ:** بِهَا يَرْتَقِي وَعْيُ الْإِنْسَانِ وَتَصَرُّفَاتُهُ.

- **يَنْبُوعِ الْمَعْلُومَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ:** وَهِيَ التَّجَارِبُ الْمَعْرِفِيَّةُ، وَالْقِرَاءَةُ، وَالْإِطْلَاقُ عَلَى تَوْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَقِرَاءَةُ التَّارِيخِ الْمَشْرِقِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالتَّمَعُّنُ بِأَمْثَالِهَا وَتَقَالِيدِهَا.

- **يَنْبُوعُ التَّوَّاصِلِ:** يُسَاعِدُ عَلَى إِيقَاضِ الْوَعْيِ الْعَقْلِيِّ، وَيُحَسِّنُ التَّصَرُّفَ بِرُشْدٍ. الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ لَا يَقْتُلُ وَلَا يَضْرِبُ. الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ الْوَاعِي فِي أَيِّ حَدَثٍ، فَإِنَّهُ مُنْضَبِطٌ يَعْرِفُ حُسْنَ التَّصَرُّفِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الرُّشْدِ.
- **يَنْبُوعُ الْحِنْكََةِ وَالْفِطْنَةِ وَالذِّكَاةِ:** فَإِذَا اجْتَمَعُوا بِشَخْصٍ وَاحِدٍ، زَادَتْهُ حِكْمَةٌ وَرُشْدًا وَيَقْظَةً وَفِطْنَةً وَمُرُونَةً وَاسْتِيعَابًا لِحَلِّ الْمَشَاكِلِ وَالْأَزْمَاتِ.
- **يَنْبُوعُ انْبِعَاثِ الْإِنْسَانِ الْوَاعِي:** لِأَنَّ الْفَرْدَ هُوَ مَحْوَرُ الْقَضِيَّةِ وَالْعَامِلِ الْمُهْمُّ فِي بِنَاءِ الْحَضَارَةِ وَالتَّقَدُّمِ وَالْإِزْدِهَارِ. "الْحَضَارَةُ لَيْسَتْ تَكْدِيسًا لِلْمُنْتَجَاتِ، بَلْ هِيَ بِنَاءٌ وَهَنْدَسَةٌ. فَالْحَيَاةُ لَا تُحَلَّلُ الظَّوَاهِرَ، وَإِنَّمَا تَرْكَبُهَا. فَإِذَا كَانَتْ الْعَنَاصِرُ قَابِلَةً لِلِانْدِمَاجِ، صَانَتْ مِنْهَا الْحَيَاةَ، أَمَّا حِينَمَا تَكُونُ مُتَوَرِّعَةً مُتَضَارِبَةً، فَإِنَّهَا تَحْصُلُ مِنْهَا تَكْدِيسًا، هُوَ وَالْفَوْضَى صِنْوَانٍ وَعَلَيْهِ، فَكُلُّ مَا يَسُودُهُ مِنْ اخْتِلَاطٍ وَفَوْضَى فِي الْمَيَادِينِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ، أَوْ فِي مَيَادِينِ السِّيَاسَةِ، إِنَّهَا هِيَ نَتِيجَةُ ذَلِكَ الْخَلِيطِ مِنَ الْأَفْكَارِ الْمَيِّتَةِ – تِلْكَ الْبَقَايَا غَيْرِ الْمُصَفَّاةِ – وَمِنَ الْأَفْكَارِ الْمُسْتَعَارَةِ – تِلْكَ الَّتِي يَتَعَاطَمُ خَطَرُهَا كُلَّمَا انْفَصَلَتْ عَنِ إِطَارِهَا التَّارِيخِيِّ".⁽¹⁾

(1) مالك بن نبي: مشكلات الحضارة – وجهة العالم الإسلامي، ص (77 إلى 81) بتصرف.

أَسْئَلَةٌ مُّحْيِرَةٌ:

1. مَا هِيَ الْمَوَرِّثَاتُ السُّلُوكِيَّةُ؟
2. هَلِ الْمَوَرِّثَاتُ السُّلُوكِيَّةُ مَوْجُودَةٌ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ فَقَطْ؟
3. هَلْ جُبِلَ الْإِنْسَانُ عَلَى بَعْضِ الطَّبَائِعِ الطَّيِّبَةِ وَالْخَبِيثَةِ؟
4. مَا مَدَى تَأْثِيرِ الْبِيئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَسْرِيَّةِ فِي تَهْذِيبِ الطَّبَاعِ؟
5. هَلِ الْوَرَاثَةُ السُّلُوكِيَّةُ تُورَثُ لِلْأَبْنَاءِ؟
6. هَلِ الطَّبَاعُ وَالسُّلُوكِيَّاتُ تُؤَيَّرُ عَلَى وَعْيِ الْإِنْسَانِ؟

لِنَتَذَكَّرَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89].

هَذِهِ الدِّرَاسَةُ الْعِلْمِيَّةُ مَحْفُوظَةٌ فِي كِتَابِي (عِلْمُ الطَّبَاعِ السُّلُوكِيِّ فِي الْقَلْبِ وَصِرَاعُ الْإِرَادَاتِ الْعَقْلِيَّةِ - الطَّبَعَةُ الْأُولَى عَامَ 2021 م، بِمُؤَافَقَةِ وَرَارَةِ الْإِعْلَامِ عَلَى الطَّبَاعَةِ رَقْمَ 119318 تَارِيخَ 2021/2/24 م)، حَيْثُ أَخَذْتُ حَقَّ الْمُلْكِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى هَذَا الْمَوْضُوعِ. وَهُنَا أُخْتَصِرُهُ لِكَيْ تَعُمَّ الْإِفَادَةُ لِلْجَمِيعِ.
تَعَالَوْا مَعًا... نَقْرًا لِنَصِلَ...

الفصل الثاني القلب وما أوعى

قال رسول الله ﷺ: "أَلَا وَإِنَّ لِلَّهِ أَوَانِي فِي أَرْضِهِ، وَهِيَ الْقُلُوبُ، فَأَحَبُّ الْأَوَانِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَصْفَاهَا وَأَصْلَبُهَا وَأَرْقُفَهَا". (1)

- إِنَّ الْقَلْبَ مُسْتَوْدَعُ الْمُعْتَقَدَاتِ وَالْأَحَاسِيْسِ، وَكُلِّ مَا أَوْعَاهُ الْقَلْبُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ وَأَفْكَارٍ وَمَفَاهِيْمٍ، أَهْمُهَا الْمُعْتَقَدُ الْإِيْمَانِيُّ الَّذِي يَسْتَقَرُّ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ، وَفِيهِ الطَّبَاعُ السُّلُوكِيَّةُ الَّتِي بِهَا يُظْهِرُ الْإِنْسَانُ مَا يَحْمِلُهُ مِنْ مَشَاعِرٍ وَأَحَاسِيْسٍ لِلْخَارِجِ، فَيُنَادِي بِاسْمِهَا.
- الطَّبَاعُ: مَا هِيَ إِلَّا مُورَثَاتٌ سُلُوكِيَّةٌ مَجْبُولَةٌ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ، مُؤَلَّفَةٌ مِنْ رُوحٍ (شَفْعٍ)، أَي صِنْفَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ: أَحَدُهُمَا ظَاهِرٌ، وَالْآخَرُ ضَامِرٌ. وَلِكُلِّ طَبَعٍ مَا يُقَابِلُهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُوحَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49].

فَالطَّبَاعُ الظَّاهِرَةُ – السَّائِدَةُ – تَكُونُ ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ: مِنْهَا الْخُلُقُ الْحَسَنُ، وَمِنْهَا الْخُلُقُ الذَّمِيمُ. وَأَمَّا الطَّبَاعُ الْمَسْتُورَةُ – الْمُنْتَجِيَّةُ – فَتَكُونُ خَامِدَةً لَا تَظْهَرُ لِلْعِيَانِ: مِنْهَا الْخُلُقُ الْحَسَنُ وَالذَّمِيمُ. وَالْإِنْسَانُ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ: إِمَّا لِيُنْمِيَهَا، أَوْ لِيُخْفِيَهَا، وَذَلِكَ بِالتَّعَوُّدِ الْإِرَادِيِّ وَالْمَرَاوَلَةِ، لَكِنْ يُوجَدُ اسْتِنْتَاءٌ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُطَبِّعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ الْخِلَالِ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ". (2)

(1) أخرجه الطبراني.
(2) رواه أحمد والبيهقي.

• إِنَّ الْمَوْرَثَاتِ السُّلُوكِيَّةَ وَالْجِسْمِيَّةَ مَجْبُولَةٌ مِنْ مَشْكَاتٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ؛
 أَيَّ أَنَّ أَسَاسَ الْمَوْرَثَةِ (DNA) وَأَسَاسَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَنَاصِرِ الْأَرْضِ. عَنْ
 أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ
 مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ: فَجَاءَ
 مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْحَبِيثُ
 وَالطَّيِّبُ". (1)

لَا حِطُّوا كَيْفَ الْمَرْجُ بَيْنَ خَلْقِ الْإِنْسَانَ وَخُلُقِهِ كَجِبَلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَنَّ الْخُلُقَ وَالْخُلُقَ
 يُورَثَانِ، وَأَنَّ الْمَوْرَثَاتِ السُّلُوكِيَّةَ الطَّبَعِيَّةَ هِيَ عِلْقَةٌ مَادِّيَّةٌ. وَعَنْهُ ﷺ قَالَ لِحَجَرٍ:
 "أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي". (2)

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْ نَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصفات: 101]، أَيُّ وَجِدَتْ فِي جِبَلْتِهِ قُوَّةُ
 الْجَلْمِ.

تَتَأَثَّرُ الْمَوْرَثَاتُ السُّلُوكِيَّةَ كَثِيرًا بِالْبِيئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَاضِرَةِ لِلْفَرْدِ؛ لِأَنَّ السُّلُوكَ
 وَالْأَخْلَاقَ وَالْعَادَاتِ وَالْمَوَاهِبَ وَإِنْمَاءَ الْعَقْلِ يَتَأَثَّرُونَ بِالْبِيئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُحِيطَةِ
 بِالْفَرْدِ، وَخَاصَّةً تَأْتِيرُ التَّرْبِيَّةَ وَسُلُوكِ الْأَهْلِ وَصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ. فَكُلَّمَا كَانَ الْوَارِثُ
 الدِّينِي قُوِيًّا، يَزْدَادُ وَعِظُ الْعَقْلِ ارْتِفَاعًا وَقُوَّةً بِتَأْتِيرِ الْبِيئَةِ الْجَيِّدِ وَصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْرْتَقِي وَيَرْبُو فِي الْمُنْتَبِتِ الصَّالِحِ وَالْمُعْتَقِدِ الصَّالِحِ. قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58].

قَالَ ﷺ: "إِنَّ الْوَدَّ يُتَوَارَثُ". (3)

(1) رواه أبو داود في سننه برقم (4693).

(2) رواه أحمد والترمذي.

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم (43)

حَفْظُ الْمَوَدَّةِ طَبْعٌ، لَيْسَ يُحْسِنُهُ إِلَّا كَرِيمٌ عَلَى الْإِحْسَانِ مَجْبُولٌ.

هُؤُلَاءِ حَمَلُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمُعْتَقَدَ الْإِيمَانِيَّ السَّلِيمَ، وَأَوْعَوْا فِي قُلُوبِهِمُ التَّمَارَ الطَّيِّبَةَ عَنِ الْأَفْكَارِ وَالْمَفَاهِيمِ الرَّاقِيَةِ، يُطَيِّفُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَظَهَرَتْ فِيهِمُ الطَّبَاعُ الْحَسَنَةُ الَّتِي تُوجِّهُ الْإِنْسَانَ بِسُلُوكِيَّاتِهِ الْخَيْرَةِ لِفِعْلِ الْخَيْرِ. فَصَلَحُ الْأَبْنَاءِ مِنْ صَلَاحِ الْأَبَاءِ. وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: "تَخَيَّرُوا لِنُطْفُوكُمْ، فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ". فَهَدِيئًا لِمَنْ أَنْضَجَ بُدُورَ الْخَيْرِ وَطَبَاعَ الْخَيْرِ فِي قَلْبِهِ، وَسَقَاهَا بِمَا أَوْعَاهُ وَأَرَشَفَهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ مَعَانِي الْخَيْرِ وَفِكَرِ الْخَيْرِ وَمَفَاهِيمِ الْخَيْرِ، فَلَا تَتَّمُرُ إِلَّا طَبَاعُ الْخَيْرِ. وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ.

وَالْعَكْسُ صَحِيحٌ: فَذُتُّورُ الطَّبَاعِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ الدَّمِيمَةِ، وَيُنَمِّيهَا الْإِنْسَانُ نَفْسُهُ.

إِنَّ انْحِرَافَ فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْبِيئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي تَقْوِيَةِ بُدُورِ الطَّبَاعِ الدَّمِيمَةِ، لِتُصْبِحَ سَائِدَةً نَتِيجَةً مُرَاوَلَتِيهَا وَالتَّعَوُّدِ عَلَيْهَا، فَتُصْبِحَ ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ، وَيُنَادِي صَاحِبُهَا بِطَبَاعِهِ الدَّمِيمَةِ نَتِيجَةً وَهِيَ الْوَاعِظِ الْعَقْلِيِّ فِي ضَبْطِ هَوَى النَّفْسِ، فَيَضْعُفُ هَذَا الْوَاعِظُ إِلَى أَنْ يَفْقِدَ قِيَمَتَهُ لِزُرُوعِ الْهَوَى وَقِيَادَتِهِ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ. وَمَا الْهَوَى إِلَّا مَيْلُ الطَّبَعِ إِلَى مَا يُلَائِمُهُ، فَتَمِيلُ النَّفْسُ إِلَى مَا تَسْتَلِدُّهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ. بَلْ وَزِيَادَةً: فَإِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ لَا يُوعِي إِلَّا الشَّرَّ، وَيَحْسَبُ نَفْسَهُ أَنَّهُ يُوعِي الْخَيْرَ. فَكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ مَيَّالًا لِهَوَى النَّفْسِ، كُلَّمَا ابْتَعَدَ عَنِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ وَعَنْ وَعِيِ الْعَقْلِ، فَلَا يُدْرِكُ وَلَا يَعِي إِلَّا الْقَادُورَاتِ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالْمَفَاهِيمِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصفات: 69-70]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: 28].

وَهَكَذَا يَنْزَلِقُ الْإِنْسَانُ إِلَى مَا لَا يُحْمَدُ عُقْبَاهُ مِنْ انْعِكَاسِ طَبَاعِهِ الدَّمِيمَةِ عَلَى مَظْهَرِهِ الْخَارِجِيِّ بِظُهُورِ السُّلُوكِيَّاتِ الدَّمِيمَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 81].

وَمَا أَكْثَرَ الطَّبَّاعِ الْمَذْمُومَةَ: مِنْهَا طِبَّاعُ الْمَعَانِدَةِ لِلْحَقِّ، طَبُّعُ الْإِسْتِكْبَارِ، طَبُّعُ الْإِنْتِهَازِيَّةِ، طَبُّعُ الْإِسْتِعْلَاءِ، طَبُّعُ الْمُجَادَلَةِ، طَبُّعُ الْكُذْبِ وَالْخِيَانَةِ، طَبُّعُ الْبُخْلِ وَالشُّحِّ. وَهَكَذَا بَنَوْا لِأَنْفُسِهِمْ شَبَكَةً وَمَنْطُومَةً تَبْدَأُ بِالسُّلُوكِيَّاتِ وَالْأَخْلَاقِ الدَّمِيمَةِ، مُمِرًّا بِمَا أَوْعَوْهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْحَفْدِ وَالْكَرَاهِيَةِ، فَكَانَ مَا فِي مُعْتَقَدِهِمْ سَوَادًا لَا يُمَكِّنُ غَسْلَهُ.

قَالَ جُنَيْدٌ: "الْإِنْسَانُ لَا يُعَابُ فِي طَبْعِهِ، إِنَّمَا يُعَابُ إِذَا فَعَلَ مَا فِي طَبْعِهِ".
وَبِالصَّبْرِ عَلَى تَغْيِيرِ الطَّبَّاعِ، وَمُزَاوَلَةِ الْعَادَاتِ الْحَسَنَةِ مَعَ الصُّحْبَةِ الْحَسَنَةِ، تَنْمُو الْبُذُورُ السَّلِيمَةُ مِنَ الطَّبَّاعِ لِثَمَرِ طِبَّاعًا حَسَنَةً. وَالسِّقَايَةُ مِنْكَ أَنْتَ: أَنْ تَعِيَ الْخَيْرَ، وَفَعَلَ الْخَيْرِ، وَحُبَّ الْخَيْرِ، وَفَكَرَ الْخَيْرِ. فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَجْنِيَ ثَمَارَ الْخَيْرِ مِنَ الطَّبَّاعِ الْخَيْرَةِ.

الْعَاقِلُ مَنْ يَتَرَوَّدُ بِالْوَعْيِ الْحَامِلِ لِلْخَيْرِ، وَخَيْرُ الزَّادِ التَّقْوَى. (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) [البقرة: 197].

تَعَالَوْا مَعًا نَنْزَوُدْ وَنَسْتَنْهَضِ السُّلُوكِيَّاتِ وَالطَّبَّاعِ الْخَيْرَةِ، بِهَا يَرْتَفِعُ مَقَامُ الْوَعْيِ... تَعَالَوْا مَعًا نَقْرَأْ.

الفصل الثالث

استنهاض وتهديب الطباع الخلقية

إن استنهاض الطباع الخلقية يكمن فيما وصل إلى القلب من تراكمات معرفية في منظومة الوعي. فكلما أوعى الإنسان العلوم النافعة - وخير العلوم وأحسنها علوم القرآن، وخيرها علوم التوحيد ومعرفة صفات الله ﷻ - به تتوسع المدارك، ويزداد الوعي قوةً وسُمُوًا لما استخلصه من عمليتي الإدراك والفهم، وتزداد المعاني والدلالات تفسيرًا للكلمات القرآنية فهما، فترتفع هُدسُهُ تعظيمها فكرًا وفهماً وتأثيرًا عظيمًا للمخزون الذي أوعاه وعينًا وحرنةً في دهايز المعتقد الإيماني، له أثرٌ عظيمٌ على تحسين الطباع المَجبولة في قلب الإنسان، والمورثات السلوكية كالبذور. فمن سقاها بماء الوعي السليم المتدقق، أظهرت الشجرة ثمارها لعمل الخير... فالطباع تعكس السلوكيات الحسنة على صاحبها، وهنا بحاجة ماسة إلى عامل الكبح ومنع الطباع الدميمة من الظهور بزيادة الميل والتكرار، وإظهار الطباع الحسنة، كالصبر والحلم لتخفيف حدة الانفعالات؛ لأن تكرار المنع يؤدي لظهور الطبع المعاكس. ويساعده في ذلك عامل القدوة الحسنة وصحبة الأخيار لإظهار الطباع الحسنة.

لكن أهم عامل هو التعود والتكرار لتغيير الميل إلى الطبع الحسن، ولا يأتي إلا بالمزاوله والتكرار. وفي الحديث: "وَمَنْ يَصْبِرْ، يُصْبِرْهُ اللَّهُ". (1)

وعنه ﷺ قال: "إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالنَّعْمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحْلُمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطِهِ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ". (2)

(1) رواه البخاري برقم (1469)، جزء من الحديث.
(2) رواه أبو الحسن علي بن عمر، ويلقب بـ (الدارقطني): سنن الدارقطني.

(وَالْمَلَكَاتُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِتَكَرُّرِ الْأَفْعَالِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ يَقَعُ أَوَّلًا، فَتَعُودُ مِنْهُ لِلذَّاتِ صِفَةً، ثُمَّ تَتَكَرَّرُ فَتَكُونُ حَالًا. وَمَعْنَى الْحَالِ أَنَّهَا صِفَةٌ غَيْرُ رَاسِخَةٍ، ثُمَّ يَزِيدُ التَّكَرُّارُ، فَتَكُونُ مَلَكََةً، أَيْ صِفَةً رَاسِخَةً). (1)

إِذَا، بِاسْتِنْتِهَاضِ الطَّبَاعِ الْمَيَّالَةِ لِفِعْلِ الْخَيْرِ، يَكُونُ حَامِلَهَا يَتَّجِهُ لِلطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ. وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ". (2)

هُنَا نُرَاقِبُ كَيْفَ أَنَّ هَذَا الْمُؤْمِنَ شَدَّ هِمَّتَهُ لِفِعْلِ الْخَيْرِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ سَارَ بَيْنَ النَّاسِ جَابِرًا لِلْخَوَاطِرِ، أَدْرَكَهُ اللَّهُ فِي جَوْفِ الْمَخَاطِرِ" (3)

أَلَيْسَتْ قِيَادَتُنَا حَكِيمَةً عَاقِلَةً وَاعِيَةً أَشَدَّ الْوَعْيِ؟ فَبَدَلًا مِنْ كَسْرِ حَلْقَةِ الْعُنْفِ وَالْعُنْفِ الْمُضَادِّ، كَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِمُ الْإِسْتِمْرَارُ فِي الْمَعَارِكِ وَتَطْبِيقُ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: 39]. إِنَّهُمْ أَقْوِيَاءُ وَهَمَّتُهُمْ عَالِيَةٌ، وَلَكِنْ تَوَاضَعُوهُمْ لِلَّهِ. فَدَرُّوا وَعَفَوْا... فَقَالُوا: "أَذْهَبُوا أَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ". إِنَّهُ عَيْنُ الْإِنْتِصَارِ... هَكَذَا يَتَعَامَلُ مَنْ كَانَ وَعَيْهِمْ يَحْمِلُ سِمَةَ الْعَفْوِ عِنْدَ الْمُفِيدَةِ. إِنَّهُمْ أَهْلُ الْإِحْسَانِ وَأَهْلُ الرُّشْدِ لِيَتَصَرَّفَهُمْ بِحِكْمَةٍ وَعَقْلَانِيَّةٍ.

قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَهَايَةِ الْقِصَّةِ: ﴿قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92].

إِنَّ الْعِزَّةَ وَالنَّمَكِينَ لَا تَأْتِي إِلَّا مِنْ أَحَبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ. وَعَنْهُ ﷺ: "مَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ فَلْيُطِيعِ الْعَزِيزَ، وَمَنْ اعْتَرَّ بِالْعَبْدِ أَذَلَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ اعْتَرَّ بِاللَّهِ أَعَزَّهُ اللَّهُ". (4)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8].

(1) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: المقدمة، ص (554)

(2) د. ماهر جميل بايزيد: علم الطباع السلوكية وصراع الإرادات العقلية (من ص 80 إلى 85) مختصراً.

(3) رواه الترمذي.

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج3، مجلد 7 ص (450).

هَذَا مَا حَصَدْنَاهُ مِنْ مَنْظُومَةِ الْوَعْيِ، وَمَا الْوَعْيُ إِلَّا هَذَا الْمُحْتَوَى الطَّاقِي مِنْ
 الْفِكْرِ وَالْمَفَاهِيمِ الدَّسِمَةِ الْمُنْظَّمَةِ فِي تَسْيِيرِ دَقَّةِ إِرَادَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْقَوْلِ
 الصَّالِحِ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي بِأَمْرِهِ وَوَحْيِهِ أَثَّرَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ بَأَنَّ يُدْرِكَ
 وَيَسْتَقْبِلَ الْمَعْلُومَاتِ الصَّحِيحَةَ لَيْسْتَوْعِبَهَا فَهَمًّا، لِكَيْ يَتَحَوَّلَ إِلَى وَعْيٍ مُؤَرَّشَفٍ
 فِي قَلْبِهِ الْمَشْحُونِ بِقُوَّةِ طَاقِيَّةٍ، تَطْهَرُ أَعْمَالًا خَيْرَةً تَكُونُ جُزْءًا مِنْ عَمَلِ الْإِحْسَانِ.
 إِنَّهَا شَبَكَةٌ مُتَكَامِلَةٌ مِنْ طِبَاعِ خَيْرَةٍ، وَزَادَ مِنَ الْوَعْيِ الصَّحِيحِ، وَتَقْوَى اللَّهِ
 تَصَدَّحُ بِعَمَلِ الْإِحْسَانِ، وَتَصَرُّفِ الرَّشِيدِ، وَبِحِكْمَةِ وَرَوِيَّةٍ. إِنَّهُمْ أَهْلُ الْإِحْسَانِ.
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل
 عمران: 134].

فَيَرْتَفِعُ وَتَسْمُو قِيمَةُ الْإِنْسَانِ بِمَا يَحْمِلُ مِنْ مُعْتَقَدٍ إِيْمَانِيٍّ صَحِيحٍ يَكُونُ نَبْرَاسًا
 لِأَسُسِ النَّهْضَةِ الْفِكْرِيَّةِ. فَالطَّبَاعُ الْحَسَنَةُ تَدْفَعُهُ لِّلْسُلُوكِ السَّلِيمِ، فَيَرْتَقِي الْوُجْدَانَ،
 وَيَرْتَقِي مَعَهُ الشَّغْفُ لِحُبِّ الْخَيْرِ، وَالسُّلُوكِ، وَالتَّصَرُّفِ الرَّشِيدِ، وَمَعْرِفَةِ
 الْحُقُوقِ، وَالْوَاجِبَاتِ. هُنَا يَظْهَرُ بِوُضُوحٍ مِيزَانُ التَّوَاظُنِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْعُقَلَاءِ الَّذِينَ
 تَدَبَّرُوا أُمُورَهُمْ وَنَظَرُوا إِلَى عَاقِبَةِ الْأُمُورِ، وَفَهَمُوا أَنَّ مَا تُقَدِّمُهُ لِدَاتِكَ مِنْ أَفْكَارٍ
 وَمَفَاهِيمٍ وَعُلُومٍ رَاقِيَّةٍ عَبْرَ الْبُؤَابَاتِ الْإِدْرَاكِيَّةِ يَسْمُو بِهِ الْوَعْيُ الدَّائِي، فَتَسْمُو
 مَعَهُ الْفُضِيلَةُ وَالْإِعْتِدَالُ وَالتَّوَاظُنُ.

إِذَا، فَوَعْيُ الْفَرْدِ الدَّائِي وَبِمَا يَحْمِلُهُ مِنْ أَفْكَارٍ نَبْرَةٍ يُثْمِرُ أَعْمَالًا وَأَقْوَالًا؛ لِأَنَّ
 مَا يُوعِيهِ يَصْنَعُ لَبَنَةً فِي بِنَاءِ مَنْظُومَةٍ فِكْرِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ. يَقُولُ مَالِكُ بْنُ نَبِيِّ: "نَحْنُ
 بِحَاجَةٍ إِلَى أَفْكَارٍ وَاضِحَةٍ تَهْدِي سَعْيَهُ إِلَى النَّهْضَةِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ مَا يُهْمُنَا فِي الْمَقَامِ
 الْأَوَّلِ الْأَسْبَابُ الْبَعِيدَةُ لِتَقَهُّرِهِ وَانْحِطَاطِهِ". (1)

(1) مالك بن نبي: مشكلات الحضارة - وجهة العالم الإسلامي، ص (29)، دار الفكر المعاصر.

وَأَهْمُ الْعَوَامِلِ لِعَدَمِ وُضُوحِ رُؤْيَةِ جَوْهَرِ النَّهْضَةِ الْفِكْرِيَّةِ يَكْمُنُ فِي قَضِيَّةِ " حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ " (عُنْصُرِ الْمَوْتِ)، وَالَّذِي يَتَّصِدَامُ مَعَ رُوحِ الْقُرْآنِ (عُنْصُرِ الْحَيَاةِ).

يَقُولُ مَالِكُ بْنُ نَبِيِّ: " هُوَ الَّذِي يُتَبَحُّ لِلْإِنْسَانِيَّةِ أَنْ تَتَقَدَّمَ، فَحَيْثُمَا قُدَّتِ الرُّوحُ سَقَطَتِ الْحَضَارَةُ وَانْحَطَّتْ؛ لِأَنَّ مَنْ يَفْقِدُ الْقُدْرَةَ عَلَى الصُّعُودِ لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَهْوِيَ بِتَأْثِيرِ الْجَاذِبِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ". (1)

وَالَّذِي يَزْرَعُ هَذِهِ التِّزَاعَاتِ الْجَاهِلِيَّةَ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، وَيَبْنِي الْجَهَالَةَ الْفِكْرِيَّةَ عَنِ طَرِيقِ الْوَسَائِلِ الْإِعْلَامِيَّةِ، هُمْ فِي دَاخِلِ الدَّوْلَةِ الْعَمِيقَةِ لَوْجُودِ النَّزْعَةِ الْإِسْتِعْمَارِيَّةِ الْإِسْتِعْلَائِيَّةِ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، نَزْعَةٌ مَادِيَّةٌ قَاتِلَةٌ. فِي دَاخِلِهِمْ مَازَالَ الْإِحْبَاطُ وَالْفَشْلُ يَسْرِي بِعُرُوقِهِمْ لِخُرُوجِهِمْ مُنْكَسِرِينَ مِنَ الْقُدْسِ عَلَى يَدِ الْقَائِدِ صَلاَحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ. هَكَذَا هُمْ يَحْمِلُونَ الْعِلَّ إِلَى الْيَوْمِ، لِمَا تَحْمَلُهُ قُلُوبُنَا مِنْ مُعْتَقَدَاتِ إِيْمَانِيَّةِ رَاسِخَةٍ، وَهُنَاكَ مَنْ يُسَعِّرُ النَّارَ وَالْحُرُوبَ وَالْمُؤَامَرَاتِ، لَكِنَّ اللَّهَ عِجْلٌ يُطْفِئُهَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64].

لِهَذَا هُمْ يُحَاوِلُونَ بِاسْتِمَاتَةِ شَدِيدَةِ السَّيْطَرَةِ عَلَى مَنْظُومَةٍ وَعَيْنًا بِيَتْ الرِّسَائِلِ الْفِكْرِيَّةِ السَّلْبِيَّةِ لِرِزْعَةِ مُعْتَقَدَاتِنَا، وَأَهْمُ هَذِهِ الرِّسَائِلِ الْفِكْرِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ أَنَّهُمْ ابْتِدَاءً عَرَفُوا أَنَّهُمْ مَهْمًا قَاتِلُونَ لَنْ يَضُرُّوا مُعْتَقَدَنَا بِشَيْءٍ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ. وَلِهَذَا سَتَرَدَادُ حُرُوبُهُمْ الْفِكْرِيَّةَ عَلَى مَنْظُومَةٍ وَعَيْنًا وَبِمَا تَحْوِيهِ فِي قُلُوبِنَا، اعْتِقَادًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُدْلُونَنَا. وَهَكَذَا هِيَ فَلَْسَفَةُ الْإِسْتِعْمَارِ: كُلُّهُمْ يَجْتَمِعُونَ عَلَى هَذَا الْمَبْدَأِ، تُلْخِصُهَا آيَةُ كَرِيمَةٍ قَوْلُ مَلَكَةِ سَبَأٍ: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا

(1) مالك بن نبي: مشكلات الحضارة - وجهة العالم الإسلامي، ص (31)، دار الفكر المعاصر.

وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴿النمل: 34﴾. فَرَدَّ اللَّهُ بِصِدْقِ قَوْلِ مَلَكَهٖ سَبِيًّا: ﴿وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 34].

سُبْحَانَ اللَّهِ... انظروا كيف أقرَّ اللهُ ﷻ بما قالته ملكة سبياً... قالت الحق فأيدتها ربُّ العزرة.

هناك عشرات الأمراض تنخرُ في فكر مجتمعتنا، منها: فقدان الثقة بالنفس، فقدان الحس بالمسؤولية، فقدان الأمل، والانتهازية. لكن ما العمل في إنهاض فكرنا ووعينا؟ "إن خطاب الشرع وجد ليؤكد للناس أن المفسود الأعظم من وضع الشريعة إخراج العبد من داعية هواه ليكون عبداً لله، ولا يكون هذا إلا عبر التسليم والخضوع المطلق لأحكام الله تعالى والاستسلام لله. وهنا تكمن عملية الابتلاء للعباد في تطبيق الأحكام." (1)

تعالوا جميعاً نثبت وننمي مشاعرنا الأخلاقية والسلوكية كما يحبُّ اللهُ ورسوله. قال رسولُ اللهِ ﷺ: "إن الله يحبُّ معالي الأخلاق ويكره سفاسفها" (2) أليس كلامُ اللهِ تعالى وسنةُ رسوله ﷺ يدفعا دفعا لمعالي الأمور من الأخلاق وتطهير السلوكيات في القول والفعل، فيسمو وعينا، وتعلو هممتنا بالعلم النافع والأفكار المبدعة، فنزداد طموحاً، وعزرةً وشموحاً وإباءً؟

تعالوا نقرأ هذا القانون الرباني. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 33-36].

(1) د. ماهر جميل بابيزيد: علم الطبائع السلوكي وصراع الإرادات العقلية ص(87).

(2) حديث صحيح.

سُبْحَانَ اللَّهِ! آيَاتُ مِنَ الْقُرْآنِ تَرشِدُنَا لِلْخَيْرِ كُلِّهِ وَبِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ ﷻ أَنْ نَصْبِرَ
عِنْدَ الْعُضْبِ، وَأَنْ نَحْلَمَ عِنْدَ الْجَهْلِ، وَأَنْ نَعْفُو عِنْدَ الْإِسَاءَةِ. فَالْعَدَاوَةُ تُقَلِّبُ مَحَبَّةً
بِالصَّبْرِ وَالْحِكْمَةِ وَقَوْلِ الرَّشْدِ. وَهُوَ لِأَيِّ الثَّلَاثَةِ رَكَائِزُ الْإِحْسَانِ... سُبْحَانَ اللَّهِ!

فَتَعَالَوْا نَعْمَلْ فِي حَقِّ الْإِحْسَانِ، وَإِقَامَةِ الْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَجَبْرِ
الْخَوَاطِرِ، وَإِغَاثَةِ الْمُهْوَوفِ، وَالتَّغَاوُلِ عَنِ الْمُسِيءِ، وَالصَّدَقَةِ ثُمَّ الصَّدَقَةِ، مَا
أَعْظَمَهَا! الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ
وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ
الْأَذَى وَالسُّوْكَ وَالْعِظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاقُكَ مِنْ دَلُوكَ فِي دَلُوكِ
أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصْرَ لَكَ صَدَقَةٌ". (1)

"وَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ". (2)

هُنَا يَكُونُ الْقَلْبُ صَافِيًا مِنَ الدُّنُوبِ، صُلْبًا فِي الدِّينِ، رَقِيقًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ. وَلَا
يُنَاتَى هَذَا إِلَّا بِالتَّغَاوُلِ عَنِ سَفَاسِفِ الْأُمُورِ؛ لِأَنَّ الْحُبَّ عَطَاءٌ، وَالكَرَاهِيَةَ تَمْنَعُ
الْعَطَاءَ. فَإِذَا صَبِرْتَ فَاصْبِرْ بِلَا شَكْوَى، وَإِذَا هَجَرْتَ فَاهْجُرْ بِلَا أَدَى، وَإِذَا صَفَحْتَ
فَاصْفَحْ بِلَا عِتَابٍ... فَاللَّهُ ﷻ وَصَفَهَا كُلَّهَا بِالْجَمَالِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: 5]

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 10]

﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85].

فتعالوا نوقظ منظومة وعينا بما احتوته قلوبنا...

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد، رقم (888).

(2) رواه الطبراني.

فَتَعَالَوْا نُوقِظْ مَنْظُومَةً وَعَيْنًا بِمَا اخْتَوَتْهُ قُلُوبُنَا. قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ. قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: هُوَ النَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدًا". (1)

هَذَا هُوَ بِنَاءُ هَنْدَسَةِ الْوَعْيِ الدَّائِي لِلْفَرْدِ بِنَاءً يَسْمُو مَعَ سُمُو الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْفَرْدِ وَرَبِّهِ، بِنَاءً لَا يَصْدَأُ... لَا يَتَأَكَلُ... بِنَاءً لِلرُّقِيِّ لَا لِلْهُمُومِ وَالْإِنْجَادَارِ. فَهَنْبِيًّا لِمَنْ أَوْعَى وَأَشْرَبَ قَلْبَهُ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِأَنَّهَا حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ، وَبِهَذَا تَنْمُو الطِّبَاغُ الدَّالَّةُ عَلَى الْخَيْرِ فِي قُلُوبِ الْأَتْقِيَاءِ الْأَنْفِيَاءِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

[وَهَنْبِيًّا لِكُلِّ فَرْدٍ يُرِيدُ تَغْيِيرَ حَالِهِ لِلْأَحْسَنِ، وَيَسْعَى فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ مَعَهُ وَمَعَ مَا يُرِيدُ وَيَدْعُو. أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]؟ أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ: ﴿وَاتَّكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 34]؟ سُبْحَانَ اللَّهِ!

تَعَالَوْا مَعًا نَرَوْ قِصَّةَ كَافُورِ الْإِخْشِيدِيِّ الَّذِي حَكَمَ مِصْرَ أَيَّامِ الْمَمَالِيكِ. كَانَ هُوَ وَصَاحِبُهُ مُقَيَّدَيْنِ بِالْحَدِيدِ فِي سُوقِ النُّخَاسَةِ لِيَتَمَّ بَيْعُهُمَا، وَفِي الطَّرِيقِ كَانَتْ رَائِحَةُ شِوَاءِ اللَّحْمِ تَخْرُجُ مِنْ إِحْدَى الْحَانَاتِ، فَتَمَنَّى صَاحِبُ الْإِخْشِيدِيِّ أَنْ يَشْتَرِيَهُ صَاحِبُ هَذِهِ الْحَانَةِ لِكَيْ يَشْتَبِعَ لَحْمًا. فَقَالَ الْإِخْشِيدِيُّ: "أَتَمَنَّى أَنْ أَحْكُمَ مِصْرًا". وَذَارَتْ الْأَيَّامُ، وَفِعْلًا اشْتَرَى صَاحِبُ الْمَطْعَمِ ذَلِكَ الْمَمْلُوكَ، وَالْإِخْشِيدِيُّ اشْتَرَاهُ مُؤَسَّسُ الدَّوْلَةِ الْإِخْشِيدِيَّةِ، مُحَمَّدُ بْنُ طُفَّحِ الْإِخْشِيدِيِّ، وَأَصْبَحَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ لَهُ لِجِدَارَتِهِ وَذَكَائِهِ. فَاسْتَطَاعَ كَافُورُ الْإِخْشِيدِيِّ أَنْ يَتَدَرَّجَ الْمَنْصِبَ تَلَوَّ الْأَخْرَ لِحِكْمَتِهِ بِالسِّيَاسَةِ، فَاصْبَحَ الْوَصِيَّ عَلَى أبنَاءِ الْمَلِكِ وَأَصْبَحَ الْحَاكِمَ الْفِعْلِيَّ لِمِصْرَ وَالشَّامِ. فَكُلُّ مَا تَرَعَبَ وَتَتَمَنَّاهُ قَدْ تَحْصُلُ عَلَيْهِ لَكِنْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ". (2)

(1) رواه ابن ماجة في سننه برقم (3416).
(2) د. ماهر جميل بايزيد: لنين منظومتنا الأخلاقية - الطبعة المنقحة ص (266).

الباب الخامس
الركائز الأساسية في بناء
منظومة وهندسة الوعي المجتمعي

الفصل الأول

النقد الذاتي وحرية الحوار البناء

الوعي الذاتي هو أعلى مراتب الوعي، لاستخلاص صاحبه الرحيق الصافي من الأفكار والمفاهيم، وتدبر ما جاء فيها. وتنفى هذه الأفكار والمفاهيم والمعلومات لكي يُورسِفها في مكانها اللائق بعد استيعابها واستخلاص العبر منها. ولوجود تصادم فكري ومنتوع حول مسائل كثيرة في المجتمع، لا بد من معالجة هذا الموضوع بالحوار.

مفهوم الحوار يعتمد على وجود متحاورين متكاملين في الحقوق والواجبات، تربطهما وثيقة اعتراف متبادل بالوجود. لذا، فإن سفينة النجاة من العرق هي الحوار مع الجميع، على عكس عملية التصادم والتنافر لإلغاء وتسفيه الآخر وتحطيمه بالمجادلة العقيمة، ليُفني المتجادلين بعضهم بعضاً.

والجدال العقلي: هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل؛ أي أحكمت فتله. ومنه الجدال، فكان المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه. (1)

لذا، فإن أهم مرتكزات دور الحوار:

النقد الذاتي: هو عملية تعليمية تُزرع في النفوس، تتحكم بالنفس البشرية لخلق موازنة أخلاقية عقلانية أساسها الإحسان للآخر وإيجاد الأعذار له، ولوم أنفسنا قبل لوم الآخرين.

(1) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني.

وَفِكْرَةُ النَّقْدِ الدَّائِي: أَلَّا نَلُومَ أَحَدًا عَلَى الأَخْطَاءِ المُرْتَكَبَةِ، بَلْ نَلُومَ أَنْفُسَنَا وَذَاتَنَا. لِلأَسْفِ، لِنَحْنُ نَعْتَمِدُ اللُّومَ عَلَى الطَّرَفِ الأَخْرَ وَتَقْدِيسِ الذَّاتِ. هُنَا تَتَضَخَّمُ المُشْكِلَةُ وَلَا يُمَكِّنُ حَلَّهَا، بَلْ نَعُوضُ فِي أَعْمَاقِ المُشْكِلَةِ. هَذَا مَا طَرَحَهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ.

تَعَالَوْا مَعًا نَدْرُسُ عِدَّةَ حَالَاتٍ:

عِنْدَمَا سَكَنَ آدَمُ وَزَوْجَتُهُ الجَنَّةَ، مَنَعَهُمَا رَبُّ العِزَّةِ مِنَ الإِقْتِرَابِ مِنْ شَجَرَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَأَنْ يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ ثِمَارِ الجَنَّةِ. لَكِنَّ الشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ كَانَ لَهُمَا بِالمُرْصَادِ، فَذَاقَا الشَّجَرَةَ وَوَقَعَا فِي المَحْظُورِ.

بَيَّنَّ القَصِيدِ: أَنَّ الشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ أَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنْ قَبْضَةِ الإِتِهَامِ وَرَفَضَ المُرَاجَعَةَ الدَّائِيَّةَ وَنَقَدَ الذَّاتِ، فَعَزَا أَسَاسَ المُشْكِلَةِ إِلَى خَالِقِ الوُجُودِ بِاغْوَائِهِ. (قَالَ قَبِيْمَا أَعُوذْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ) [الأعراف: 16].

بَيْنَمَا آدَمُ قَامَ بِمُرَاجَعَةِ دَائِيَّةِ، فَنَقَدَ ذَاتَهُ، فَأَقْرَّ بِالأَخْطَاءِ وَأَقْرَّ بِالظُّلْمِ وَاللُّومِ، وَطَلَبَا مِنْ رَبِّهِمَا المَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ. وَهُنَا قِمَّةُ الإِعْتِرَافِ بِالأَخْطَاءِ وَمُرَاجَعَةُ وَمُوَاجَهَةُ الذَّاتِ، فَكَانَتْ رَحْمَةُ اللهِ قَرِيبَةً مِنْهُمَا. (قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ) [الأعراف: 23].

فَمَنَّ اللهُ عَلَيْهِمَا وَغَفَرَ لَهُمَا. أَمَّا الشَّيْطَانُ فَرَفَضَ نَقْدَ ذَاتِهِ، رَفَضَ الإِعْتِرَافَ بِالأَخْطَاءِ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُلَاحٍ، فَاسْتَمَرَ فِي طُغْيَانِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ.

إِذَا، فِكْرَةُ نَقْدِ الذَّاتِ مَا هِيَ إِلَّا قَاعِدَةٌ تُثَبِّتُ لَنَا أَلَّا نَلُومَ أَحَدًا عِنْدَمَا نَقَعُ فِي الخَطِّاءِ، بَلْ نَلُومَ أَنْفُسَنَا وَذَاتَنَا؛ لِأَنَّنا نَحْنُ المَسْئُولِينَ. هَذِهِ القَاعِدَةُ إِنْ ثَبَّتَتْ فِي وَعَيْنَا، يُصْبِحُ وَعَيْنَا الدَّائِيُّ مِثَالًا يُحْتَدَى بِهِ لِعَمَلِيَّةِ بِنَاءِ المُجْتَمَعِ الإِنْسَانِيِّ بِكُلِّ أُطْيَافِهِ. عِنْدَهَا يَتَوَسَّعُ مَفْهُومُ الحِوَارِ بَعْدَ ضَبْطِ الوَعْيِ الدَّائِيِّ بِالطَّرِيقِ السَّلِيمِ، فَتَتَلَفَّحُ الأَفْكَارُ

وَالْمَفَاهِيمِ لِاسْتِخْلَاصِ وَاسْتِنْبَاطِ رُؤْيَةٍ فِكْرِيَّةٍ وَاعِيَّةٍ مُجْتَمِعِيَّةٍ تُسَاعِدُ عَلَى حِمَايَةِ
الْبِنَاءِ وَالتَّرْقِي. بِهَذَا التَّلَافُحِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتُجَ ثَمَارٌ فِكْرِيَّةٌ نَاصِجَةٌ، يُخْلَقُ مِنْهَا فِعْلُ
الْخَيْرِ وَقَوْلُ الْحَقِّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي
أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 24-25].

هُنَاكَ أَفْكَارٌ وَمَفَاهِيمٌ أَسَاسُهَا حَبِيبٌ، لَنْ تَبْقَى فِي وَعْيِ الْعَاقِلِ؛ لِأَنَّهُ يُفَلْتَرُ مَا يَأْتِيهِ
مِنْ أَفْكَارٍ وَمَفَاهِيمٍ، وَيَزْنُهَا بِمَوَازِينِ الْعَقْلِ، فَيَحْمِي وَيُفَلْتَرُ الْأَفْكَارَ وَالْمَعْلُومَاتِ
غَيْرَ الصَّحِيحَةِ. ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا
مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 26].

أَفْكَارٌ وَاهِيَةٌ لَا تَنْفَعُ لِشَيْءٍ، كَالزَّبْدِ. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ
فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17]

وَأَمَّا صَلَاحُ الْمُجْتَمَعِ فَيَبْدَأُ مِنْ صَلَاحِ الْفَرْدِ وَوَعْيِهِ؛ لِأَنَّهُ اللَّبَنَةُ الْأَسَاسِيَّةُ
لِعَمَلِيَّةِ الْبِنَاءِ. فَانظُرُوا إِلَى أَهْلِ الْكَهْفِ: كَانَ وَعْيُهُمْ يَدْعُوهُمْ لِلْبِنَاءِ الْقَوِيمِ الرَّشِيدِ.
﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

هَكَذَا تَعَلَّمْنَا مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ أَنْ تَكُونَ عُقُولُنَا وَمَا نَعْبِهِ مِنَ الْحَقِّ رَاسِخَةً فِي
قُلُوبِنَا وَثَابِتَةً، وَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْعَقِيدَةِ. ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28].

وَأَمَّا الْفَرِيقُ الْأَخْرُ فَلَا تُطْعُهُ؛ لِأَنَّ وَعْيَهُ الْعَقْلِيَّ مُتَهَالِكٌ بِالْعَقْلَةِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى،
فَلَا عَقِيدَةَ رَاسِخَةً وَلَا وَعْيٍ، فَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطْعِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ
عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: 28]. هُوَ لِأَنَّ أَهْلَ الْعَقْلَةِ يَمُوتُ
وَعْيُهُمْ بِمَا عُقِدَ مِنْ عَقِيدَةِ عَفْنَةٍ.

تَعَالُوا مَعًا لِنَتَّبِعَ مِثْلًا آخَرَ...

إِنَّ عَمَلِيَّةَ عَدَمِ نَفْدِ الدَّاتِ وَرَفْضِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعُتُوِّ وَاسْتِكْبَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مَرِيضَةٌ بِالدِّلَّةِ وَالْجُبْنِ وَالرُّعْبِ مِنَ الْقَوْمِ الْجَبَّارِينَ أَصْحَابِ الْأَرْضِ. دَعَاهُمْ نَبِيُّهُمْ مُوسَى عليه السلام لِلدُّخُولِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ: (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) [المائدة: 21].

رَفَضُوا دُخُولَ الْأَرْضِ لِجُبْنِ طِبَاعِهِمْ وَقِلَّةِ يَتِيْنِهِمْ، فَكَانَ رَدُّهُمْ: (قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) [المائدة: 24].

هُؤُلَاءِ الْقَوْمُ يَرَفُضُونَ نَفْدَ دَاتِهِمْ وَنَفْدَ وَعِيِهِمْ لِاعْتِقَادِهِمْ بِالْعُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَأَنَّ الْخَطَأَ لَيْسَ مِنْهُمْ. وَوَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالْفَاسِقِينَ، وَعِيَهُمُ الْفُرْدِيُّ وَالْجَمْعِيُّ فَاسِقٌ، أَفْكَارُهُمْ وَمَفَاهِيمُهُمْ فَاسِقَةٌ، وَاللَّهُ عز وجل عَاقَبَهُمْ بِالنَّبِيِّ فِي الصَّحْرَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً. إِنَّهُمْ مُعَانِدُونَ لِلْحَقِّ، قُلُوبُهُمْ سَوْدَاءٌ مُظْلِمَةٌ كَظْلَمَةِ اللَّيْلِ، لَا يَتَحَمَّلُونَ الْمَسْئُولِيَّةَ وَيَرَفُضُونَ النَّفْدَ الدَّاتِيَّ، فَانْحَدَرَ وَعِيَهُمُ الْجَمْعِيُّ إِلَى الْهَلَاوِيَّةِ؛ لِأَنَّ فِسَادَ الْأَعْمَالِ مِنْ فِسَادِ الْإِيمَانِ.

هُؤُلَاءِ هُمْ قَوْمُ مُوسَى الْعِبْرَانِيِّينَ الَّذِينَ عَبَرُوا الْبَحْرَ مِنَ الضَّفَّةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَى الشَّرْقِيَّةِ عَامَ 1250 قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَسَمَّاهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ "قَوْمَ مُوسَى" (الْيَهُودَ).

لَكِنْ بَعْدَ فَنْرَةٍ تَقْدُرُ بِحَوَالِي مِائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ سَنَةً مِنْ وَفَاةِ مُوسَى عليه السلام، (حَوَالِي 1050 ق.م)، طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ شَمْعُونَ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَبْعَثَ لَهُمْ مَلَكًا لِمُقَاتَلَةِ أَعْدَائِهِمُ الْجَبَّارِينَ الَّذِينَ يُدِينُونَ بِالْوَتْنِيَّةِ. فَأَرْسَلَ اللَّهُ طَالُوتَ مَلَكًا عَلَيْهِمْ، لِكِتْمَانِهِمْ رَفْضُوا. هَكَذَا هُمْ دَائِمًا يُجِبُّونَ الْمُعَانَدَةَ وَيَرَفُضُونَ أَوْامِرَ اللَّهِ عز وجل.

ثُمَّ أَدْعُوا لِلْأَمْرِ، وَجَهَّزَ طَالُوتُ جَيْشًا لِمَقَارَعَةِ جَالُوتَ وَجَيْشِهِ الْوثنِيِّ، وَوَعَدَ طَالُوتُ جُنُودَهُ بِأَنَّ مَنْ يَقْتُلُ جَالُوتَ يُرَوِّجُهُ ابْنَتَهُ وَيُشْرِكُهُ فِي أَمْرِ الْحُكْمِ، فَكَانَ دَاوُودُ عليه السلام هُوَ مَنْ قَتَلَ جَالُوتَ.

فِكْرَةُ الْمَوْضُوعِ هُنَا: أَنَّهُمْ ظَنُّوا بِاللَّهِ الْخَيْرَ فَكَانَ لَهُمُ النَّصْرُ. رَاجِعُوا ذَاتَهُمْ وَعَرَفُوا أَنَّ السَّبِيلَ لِلْفَوْزِ هُوَ الصَّبْرُ وَالثَّبَاتُ، وَأَنَّ النَّصْرَ مِنَ اللَّهِ. وَعَيْهِمُ الْجَمْعِيُّ كَانَ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى، نَقَدُوا ذَاتَهُمْ... اِكْتَشَفُوا مَكَامِنَ ضَعْفِهِمْ. لَكِنْ بِالْإِصْرَارِ وَالْعَزِيمَةِ وَالِدُّعَاءِ لِلَّهِ تَمَّ لَهُمُ الْفَوْزُ عَلَى جَالُوتَ وَجَيْشِهِ الْوثنِيِّ.

(وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) [البقرة: 250]

انظُرُوا وَتَمَعَّنُوا: عِنْدَمَا تَعَيَّرَتِ النُّفُوسُ وَاسْتَضَاعَتِ الْعُقُولُ بِوَعْيِهَا وَإِدْرَاكِهَا، أَتَاهُمْ النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْخَطَأَ مِنْهُمْ. إِنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّحْصِيرِ الْمَعْنَوِيِّ وَالْمَادِيِّ، ثُمَّ الدُّعَاءِ لِلَّهِ بِالنَّصْرِ، فَكَانَ النَّصْرُ حَلِيفَهُمْ.

قِصَّةُ ابْنِي آدَمَ: قَتَلَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ. السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ أَنَّ الْقَاتِلَ كَانَ فَائِلاً يَنْظُرُ لِأَخِيهِ هَابِيلَ أَنَّهُ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ، فَيَرْفَعُ بِذَلِكَ مَعْيَارَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ عَلَى أَخِيهِ، فَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ انْحِطَاطًا بِوَعْيِهِ. بِهَذَا الْوَعْيِ الْحَاقِدِ الْحَاسِدِ، اصْطَنَعَ لِنَفْسِهِ بِمَقْتَلِ أَخِيهِ النَّجَاحَ! هَكَذَا هُوَ الْإِعْتِقَادُ الْفَاشِلُ بِأَنَّهُ إِذَا قَتَلَ أَخَاهُ النَّجَاحَ، يَسْلُبُ مِنْهُ النَّجَاحَ وَيَنْقَمُّهُ! فَانْحَدَرَ بِوَعْيِهِ التَّافِهِ إِلَى الْقَاعِ... رَفَضَ لَوْمَ نَفْسِهِ... رَفَضَ نَقْدَ ذَاتِهِ...

هَكَذَا هُمْ مَنْ يَحْمِلُونَ هَسَاسَةَ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ وَهَبَابَ التَّقْوَى. فَعَلَيْنَا جَمِيعًا مُرَاجَعَةً وَنَقْدَ الذَّاتِ، وَالْأَنْلُومَ أَحَدًا عِنْدَ الْخَطَأِ. هَذَا هُوَ عَيْنُ الْجِهَادِ... مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَالْإِرْتِقَاءُ بِهَا تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى، فَيُقْبَلُ عَمَلُهُ: (إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) [المائدة: 27].

عِنْدَهَا، وَيَسَبِّبُ مَنْظُومَةَ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ فِي الْمَجْتَمَعِ، تَنْهَارُ الْأَخْلَاقَ لِانْهِيَارِ
سُلُوكِهَا، فَفَسَادُ الْأَعْمَالِ مِنْ فَسَادِ الْإِيمَانِ. هَذَا مَا أَوْعَوْهُ فِي عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ مِنْ
مَفَاسِدِ الْأَخْلَاقِ وَالْإِيمَانِ. وَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ: يَعْتَقِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَوَعِيهِمْ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

[الكهف: 104]

مَهَلًا... مَهَلًا، الرَّدُّ الْحَقِيقِيُّ لِهَوْلَاءِ الْمَرْضَى أَنْ نُخْبِرَهُمْ بِحَقِيقَةِ مَرَضِهِمْ
الدَّاخِلِيِّ، وَاسْمُهُ (ظُلْمُ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ). قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: 70]. فَلَا تَلُومُوا الْأَخْرِيْنَ، بَلْ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ وَاعُودُوا إِلَى
فِطْرَتِكُمْ، إِلَى رُشْدِكُمْ، إِلَى مَنْهَجِ رَبِّكُمْ.

اقْرَأْ مَعِيَ هَذِهِ الْقِصَّةَ: أَهْلُ قَرْيَةٍ ذَهَبُوا لِصَلَاةِ الصُّبْحِ مُتَأَخِّرِينَ لِعَدَمِ سَمَاعِهِمْ
الْأَذَانَ لِغِيَابِ الْمُؤَذِّنِ، فَأَذَّنَ أَحَدُهُمْ وَصَلَّوْا وَرَجَعُوا. وَفِي الطَّرِيقِ، وَقَدْ أَشْرَقَتِ
الشَّمْسُ، رَأَوْا الْمُؤَذِّنَ مُسْتَعْجِلًا لِيُؤَذِّنَ لِلصَّلَاةِ، فَسَأَلُوا عَنْ سَبَبِ التَّأخِيرِ فَكَانَ جَوَابُهُ:
"يَبْدُو أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ أَشْرَقَتْ قَبْلَ أَوَانِهَا؟!!!"

رَفَضَ مُرَاجَعَةَ ذَاتِهِ وَلُومَ ذَاتِهِ عَنِ التَّأخِيرِ، رَفَضَ الْإِعْتِدَارَ، وَالْمُصِيبَةَ الْأَعْظَمَ
أَنَّهُ يَلُومُ الشَّمْسَ وَالنِّظَامَ الْكُونِيَّ وَلَا يَلُومُ نَفْسَهُ؟!!!

إِلَى مَتَى تَلُومُ الْأَخْرِيْنَ وَالْعَطْلُ فِينَا وَالْخَطَأُ مِنَّا؟

تَعَالَوْا مَعًا نَعُودُ لِمَا يُحِبُّ اللَّهُ ﷻ وَرَسُولُهُ. تَعَالَوْا مَعًا... كُنَّا أَخْطَأْنَا بِحَقِّ أَنْفُسِنَا،
بِحَقِّ جِيرَانِنَا، بِحَقِّ أَرْحَامِنَا، بِحَقِّ بَلَدِنَا، بِحَقِّ دِينِنَا، بِحَقِّ مُعْتَقِدِنَا الَّذِي فِي
صُدُورِنَا، بِحَقِّ وَعِينَا.

تَعَالَوْا نَقِفْ مَوْقِفَ الْإِحْسَانِ كَمَا فَعَلَ رَسُولُنَا الْكَرِيمُ ﷺ بِفَتْحِ مَكَّةَ، قَالَ: "أَنْتُمْ
الطُّلُقَاءُ"، وَكَمَا فَعَلْتُهُ حُكُومَتُنَا.

تَعَالَوْا مَعًا نَنْزِعِ الْبُغْضَاءَ مِنْ قُلُوبِنَا، نَنْزِعِ الشَّحْنَاءَ وَالْكَرَاهِيَةَ مِنْ قُلُوبِنَا،
وَنَعِيشَ فِي سَلَامٍ وَمَحَبَّةٍ. وَلَا نُصْنَعِ الْمَحَبَّةَ وَالسَّلَامَ إِلَّا بِالْإِحْسَانِ لِأَنْفُسِنَا
وَلِلْآخَرِينَ. وَلَا يَصِلُ الْمَرْءُ إِلَى مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ وَلَا النَّجَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا
بِمُخَالَفَةِ هَوَاهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41]

وَالْعَقْلُ الْمُتَهَاوِي لَا يَسْتَطِيعُ التَّحَكُّمَ وَضَبْطَ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ وَشَهَوَاتِهَا، فَكَيْفَ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَضْبِطَ مَا أَوْعَاهُ مِنْ مُعْتَقَدَاتٍ فَاسِدَةٍ؟

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيَضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 119]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا شَقِيٌّ". قِيلَ:
وَمَنْ الشَّقِيُّ؟ قَالَ: "الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِطَاعَةٍ وَلَا يَنْتَرِكُ لِلَّهِ مَعْصِيَةً". (1)

هُؤُلَاءِ يَمْلِكُونَ قُلُوبًا لَاهِيَةً غَافِلَةٌ نَتِيجَةُ الْإِنْجِرَافِ الْفِكْرِيِّ فِي وَعْيِهِمْ، فَتَشْتَطُّ
عُقُولُهُمْ بَعِيدًا عَنِ الْحَقِّ. ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا﴾ [الكهف: 14]

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَظْلِمُوا الْآخَرِينَ، وَالتَّأَثِيرُ عَلَى فِكْرِ الْإِنْسَانِ مِنْ رُفْقَاءِ
السُّوءِ عَظِيمٌ.

(1) أخرجه الإمام أحمد.

(وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا) [الفرقان: 27-29].

فَمَا بِالْكُمْ بِظُلْمِ الْآخِرِ وَالْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَى حُقُوقِهِ وَعَلَى أَخْلَاقِهِ بِالسَّبِّ وَاللَّعْنِ
وَسَلْبِهِ مُمْتَلَكَاتِهِ؟!

هُم يُنَادُونَ بِالْحُرِّيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ... ظَاهِرُهَا جَمِيلٌ، لَكِنَّ أَكْثَرَهَا مُعَلَّبَةٌ بِأَفْكَارٍ
مَسْمُومَةٍ بِالتَّبَعِيَّةِ وَالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، وَاسْتِحْلَالِ الْحَرَامِ وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ. إِنَّهَا يَا
سَيِّدِي حُرِّيَّةُ الْفَرْدِ...

مَنْ أَجَلَ اسْتِبَاحَةَ الْمُلْدَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِلَا قُبُودٍ.

يُرِيدُونَ الْمَسَاكِنَةَ بَدَلَ الزَّوْاجِ الشَّرْعِيِّ!

يُرِيدُونَ اسْتِحْلَالَ اللِّوَاطَةِ وَالسَّحَاقِ!

يُرِيدُونَ أَنْ يَنْتَعِشُوا بِالْمُخَدَّرَاتِ!

يُرِيدُونَ أَنْ يُبْنُوا أَفْكَارَهُمْ وَعَصْرَنَةَ الدِّينِ بِمَجْمُوعَةِ مَفَاهِيمِ اصْطِنَعُوهَا مِنْ
أَنْفُسِهِمْ. يُرِيدُونَ حُرِّيَّةَ التَّعْبِيرِ بِإِهَانَةِ الْآخِرِ... حُرِّيَّةَ اللَّادِينِ... حُرِّيَّةَ أَفْعَلِ مَا شِئْتَ...

الفصل الثاني إِقَامَةُ الْعَدْلِ وَنَفْيُ الظُّلْمِ

سَمَاعَةَ دِينِنَا أَعْظَمُ مِنْ مَقَالَاتِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ.

✓ دِينُنَا يَكْرَهُ فِعْلَ الْمُنْكَرِ وَالْفَحْشَاءِ.

✓ دِينُنَا يَكْرَهُ الظُّلْمَ وَالْبَغْيَ عَلَى الْآخِرِ.

✓ دِينُنَا أَعْطَى الْإِنْسَانَ حُرِّيَّةَ الْمُعْتَقِدِ:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]

✓ دِينُنَا لَا يَقْبَلُ الْإِكْرَاهَ فِي الْمُعْتَقِدِ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6]

✓ دِينُنَا دِينُ الْعَدْلِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

هُنَا بَيِّنَةُ الْقَصِيدِ. إِسْلَامُنَا قَائِمٌ عَلَى الْعَدْلِ، وَالْعَدْلُ نَقِيضُ الظُّلْمِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ
الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى عِبَادِهِ.

الْعَدْلُ: هُوَ الْمُسَاوَاةُ فِي الْمُكَافَأَاتِ: إِنْ كَانَ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: 44].

بَيِّنَةُ الْمُسَاوَاةِ: هِيَ النَّسْوِيَّةُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَمَاثِلَةِ وَالْمُخْتَلِفَةِ. فَلَا تَصِحُّ الْمُسَاوَاةُ

بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَأَهْلِ الْكُفْرِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ

الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: 20].

الْعَاقِلُ: كُلُّ تَصَرُّفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ مَوْزُونَةٌ بِمِيزَانِ إِيْمَانِهِ، ثُمَّ بِمِيزَانِ عَقْلِهِ

الرَّشِيدِ. وَحِظُّ الْعَبْدِ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يَكُونَ وَسَطًا بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، أَيْ لَا ظَلَمَ

وَلَا مَظْلُومٌ. ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58].

فَلَا طُغْيَانَ وَلَا بَغْيَ فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ. وَالْحَسَارَةُ كُلُّ الْحَسَارَةِ أَنْ يَفْقِدَ الْإِنْسَانُ تَوَازُنَهُ، فَيَمِيلَ إِلَى الطُّغْيَانِ وَالْعُقْلَةِ وَالْعِصْيَانِ. عِنْدَهَا يَخْتَلِسُ الْهَوَى قِيَادَةَ النَّفْسِ لِتَتَحَوَّلَ إِلَى النَّفْسِ الْحَبِيئَةِ. ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 37-39]

وَأَرْجَحُ النَّاسَ عَقْلًا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، وَأَعْقَلَ النَّاسَ مَنْ عَاشَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ. لِذَا، فَالْعَاقِلُ الْوَاعِي هُوَ مَنْ يَسْعَى لِلتَّوَازُنِ وَعَدَمِ الْمَيْلِ وَالْإِنْجِرَافِ؛ لِأَنَّ الْعَدْلَ هُوَ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ الْمُتَفَائِلَاتِ وَالتَّقْرِيقِ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ. لِهَذَا أُوجِدَ اللَّهُ الْمَوَازِينَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ: فَمِيزَانُ الْعَقْلِ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالسَّيِّئِ، وَمِيزَانُ الشَّرْعِ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْمِيزَانُ الْمَعْرُوفُ فِي الْأَرْضِ لِلْبَيْعِ وَعَدَمِ الطُّغْيَانِ، وَالْمِيزَانُ الْأَعْظَمُ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِشْرَافِ الدِّيَانِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. فَالْإِنْصَافُ هُوَ الْمُعَامَلَةُ الْعَادِلَةُ، وَذَلِكَ أَلَّا يَأْخُذَ مِنْ صَاحِبِهِ الْمَنَافِعَ إِلَّا مِثْلَ مَا يُعْطِيهِ، وَلَا يُبَيِّلُهُ مِنَ الْمَضَارِّ إِلَّا مِثْلَ مَا يَبْأَلُهُ. (1)

حَتَّى فِي الْعَلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِحَاجَةٍ إِلَى تَوَازُنٍ وَإِنْصَافٍ.

وَالْمَجَانَسَةُ تَكُونُ بِالْمَجَالَسَةِ، وَكَمَا قِيلَ: "الصَّاحِبُ سَاحِبٌ". لِذَا فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْهَوَى، لَنْ يَبْأَلَهُ إِلَّا الْهَوَى. وَمَنْ كَانَ مَعَ الْحُرِّيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ وَمُنْتَزِمًا بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، كُنَّا مَعَهُ. وَمَنْ كَانَ مَعَ الصَّالِحِينَ، فَهُوَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَكْرِ، فَهُوَ مِنَ الْمَاكِرِينَ.

قَالَ الْمُتَنَبِّي: مَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَمَا مِنْ ظَالِمٍ إِلَّا سَيِّئِلِي بِأَظْلَمِ

فَمَهْمَا مَكَرَ الظَّالِمُ، سَيَأْتِيهِ الرَّدُّ الْمُنَاسِبُ لَهُ. وَالظُّلْمُ إِلَى زَوَالٍ، مَهْمَا اسْتَحْكَمَ. وَالْحَقُّ وَالْعَدْلُ أَبْلَجُ، وَالْعِبْرَةُ فِي الْخَوَاتِيمِ، وَكُلُّهُ بِحِكْمَتِهِ، وَعِلْمِهِ، وَتَدْبِيرِهِ.

وَأخِيرًا، عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ: بِالنَّفْوَى تُحْفَظُ الْجَوَارِحُ، وَالنَّفْسُ تَوَازِنُهَا، فَيَرْتَبِطُ الْإِنْسَانُ بِخَالِقِهِ وَيَتَعَدَّى عَنِ الدُّنْيَا. وَمَا الدُّنْيَا إِلَّا فِطْرَاتٌ عَسَلٍ. فَالْمُؤْمِنُ يَرْتَشِفُ رَشْفَةً قَلِيلَةً مِنْ عَسَلِهَا فَيَنْجُو، وَمَنْ غَرِقَ فِي عَسَلِهَا هَلَكَ.

(1) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص (497).

الباب السادس
المسؤولية الفردية
في بناء الوعي

الفصل الأول مِيلَادُ وَيَقْظَةُ الْوَعْيِ الْفَرْدِيِّ

يَعْمَرُ عَلَى نَوْعِيَّةٍ وَتَرْكِيزِ الْأَفْكَارِ وَالْمَعْلُومَاتِ وَالْعُلُومِ الَّتِي وَصَلَتْهُ مِنْ
الْبَوَابَاتِ الْإِدْرَاكِيَّةِ لِلْعَقْلِ، وَفَلْتَرَتِهَا وَضَبَطَهَا.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ خُلِصَ قَلْبُهُ، وَجَعَلَ قَلْبُهُ
سَلِيمًا، وَلِسَانُهُ صَادِقًا، وَنَفْسُهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتُهُ مُسْتَقِيمَةً، وَجَعَلَ أُذُنُهُ مُسْتَمِعَةً
وَعَيْنُهُ نَاطِرَةً" (1).

بِهَذِهِ الْفَلْتَرَةِ الْمُنْضَبِطَةِ لِلْبَوَابَاتِ الْإِدْرَاكِيَّةِ، تَصِلُ لِإِنْتِاجِ النَّصُورِ السَّلِيمِ، فَلَا
يُبْصِرُ إِلَّا فِي الْحَلَالِ، وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا لِلْحَقِّ. فَكَبُحَ النَّفْسِ عَمَّا تَتَمَنَّاهُ عَيْنُ الْعَقْلِ،
عِنْدَهَا تَصْطَبِغُ بِحُلَّةِ الْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، وَالْخَوْفِ وَالْوَجَلِ مِنْ خَالِقِهَا. وَهَكَذَا يَسْتَمِدُّ
وَعَيْنَا الْمَعْلُومَاتِ وَالْأَفْكَارِ وَيَسْتَوِّعُهَا.

فَالْحَرِصُ كُلُّ الْحَرِصِ عَلَى أَوْلَادِنَا مِنَ الْإِنْزِلَاقِ فِي مَتَاهَاتِ الْعُلُوفِ وَالنَّطْرِفِ
مِنْ بَعْضِ الدُّعَاةِ الَّتِي يَبْتُؤَنَ الْفَنَآوِي الْمَشْبُوهَةَ لِلْقَتْلِ، وَنَشْرِ الرُّعْبِ، وَالْفِكْرِ
الظَّلَامِيِّ. وَالْحَدَرَ الْحَدَرَ مِمَّا يَصِلُ عَبْرَ الْإِنْتِرَازِ لِأَوْلَادِنَا مِنْ مَفَاهِيمِ مَسْمُومَةٍ
تَتَلَاعَبُ بِعُقُولِهِمْ.

يَرْتَفِعُ وَيَسْمُو بِنَاءِ الْوَعْيِ وَهَنْدَسَتُهُ طَرْدًا مَعَ سُمُومِ إِيْمَانِ الْفَرْدِ، فَتَرْدَادُ تِقَّةُ
وَيَقْظَةُ وَعْيِ الْفَرْدِ، وَتَرْدَادُ مَعَهَا حَنْكَتُهُ وَتَدْوِيرُهُ لِلزَّوَايَا لِإِيْجَادِ أَفْضَلِ الْحُلُولِ.

(1) رواه أحمد في مسنده.

هَذَا الْفَرْدُ أَنْشَأَ وَعَيْهِ عَلَى أَرْضِ خَصْبَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، فَحَصَدَ
ثَمَارَ وَعَيْهِ: تَدَبُّرًا، وَتَعَقُّلًا، وَفَهْمًا، وَاتِّعَازًا. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَا يُورِثُهُ الْوَعْيُ فِي
الْقَلْبِ تَتَحَوَّلُ عَمَلِيَّةُ الْأَرْشَفَةِ إِلَى مُعْتَقَدٍ، فِيهِ الْعِلْمُ الدِّينِيُّ، وَالْمَشَاعِرُ، وَالْأَحَاسِيْسُ،
وَالسُّلُوكِيَّاتُ الْأَخْلَاقِيَّةُ. فَيُصْبِحُ حَامِلٌ هَذَا الْوَعْيِ الْيَقِظُ أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ، نَاهِيًا عَنِ
الْمُنْكَرِ، مُجَبًّا لِلْأَحْرَ، جَابِرًا لِلْحَوَاطِرِ. هَذَا التَّمَيُّزُ وَالْعُلُوُّ فِي بِنَاءِ الْوَعْيِ يَزِدَادُ مَعَهُ
الْمَفَاهِيمُ الْعَقْلَانِيَّةُ. فَتَعَالَوْا نَعِدِّدْ بَعْضَ الْفُذْرَاتِ لِلْوَعْيِ الْعَقْلِيِّ.

قُدْرَاتُ الْوَعْيِ الْعَقْلِيِّ:

- ✓ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ (حِفْظُ الْعَقْلِ): صَوْنُهُ وَحِمَايَتُهُ مِنْ مَقَاصِدِ الْأَفْكَارِ وَكُلِّ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي تَضُرُّ بِهِ.
- ✓ وَأَهْلِيَّةُ الْعَقْلِ الْوَاعِي الْإِدْرَاكِيِّ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَحَمَّلُ التَّكَالِيفَ الشَّرْعِيَّةَ.
- ✓ قُدْرَةُ الْوَعْيِ الْإِدْرَاكِيِّ لِلْعَقْلِ عَلَى الْفَهْمِ وَالِاسْتِبْعَابِ وَالتَّرْكِيزِ وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّفْقُدِ.
- ✓ قُدْرَتُهُ عَلَى اسْتِحْسَانِ الْفَضِيلَةِ وَاسْتِقْبَاحِ الرَّذِيلَةِ.
- ✓ قُدْرَتُهُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْبَدَائِلِ وَأَخْذِ الْأَفْضَلِ.
- ✓ قُدْرَتُهُ عَلَى التَّحْلِيلِ وَالتَّمْيِيزِ وَفَلْتَرَةِ كُلِّ مَا يُعْرَضُ عَلَيْهِ مِنْ أَفْكَارٍ وَأَرَائٍ.
- ✓ قُدْرَتُهُ عَلَى تَرْتِيبِ الْأَوْلَوِيَّاتِ، وَتَدْوِيرِ الدَّوَائِرِ لِحَلِّ الْمُعْضَلَاتِ.
- ✓ قُدْرَتُهُ عَلَى فَهْمِ الْأَحْكَامِ وَالْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ وَتَنْفِيزِهَا.
- ✓ قُدْرَتُهُ عَلَى أَخْذِ الْقَرَارِ، وَصَوْنِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ مِنَ الضِّيَاعِ. بِهَذِهِ الْأَهْلِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، أَقَامَ اللَّهُ ﷻ عَلَى الْبَالِغِينَ الْحُجَّةَ. وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ لَا تَكْلِيفَ لَهُ. وَنِعْمَةُ الْإِسْلَامِ لَا تَنْحَقُّ إِلَّا بِنِعْمَةِ الْعَقْلِ.
- ✓ قُدْرَةُ صَاحِبِهِ عَلَى التَّرْكِيزِ وَالِإِصْنَعَاءِ وَدِقَّةِ الْمُلَاحَظَةِ، وَالرَّبْطِ بَيْنَ الْأَحْدَاثِ وَالِاسْتِنْتِاجِ، وَإِظْهَارِ التَّعْلِيلِ، وَإِعْلَانِ مَا اسْتَنْبَطَهُ وَطَبَّقَهُ.

مِنْ خِلَالِ بَحْثِي عَنِ الْعَقْلِ، تَبَيَّنَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ ارْتَضَى أَنْ يَعْبُدَ الْخَالِقَ - خَالِقَ هَذَا الْكُونِ - عُبُودِيَّةَ مَحَبَّةٍ وَوُدٍّ، عُبُودِيَّةَ الْخُضُوعِ. فَهُوَ يُدْرِكُ وَيَعِي أَنَّ عَمَلِيَّةَ الْإِمْتِنَاعِ عَنِ كُلِّ الْمَحْظُورَاتِ وَالنَّوَاهِي لِأَجْلِ مَحَبَّةِ الْمَعْبُودِ وَعَشْقِهِ تُنْسِي الْعَابِدَ الضَّغْطَ النَّفْسِيَّ الْمُتَرَكَمَ جِرَاءَ الْحَجْبِ وَالْمَنْعِ لِأَهْوَاءِ النَّفْسِ. وَلِهَذَا، فَإِنَّ مَنْزِلَةَ النَّفْوَى تَنْتَاسِبُ طَرْدًا مَعَ إِيقَاطِ الْوَعْيِ الْعَقْلِيِّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقَمْنَا أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 109].

أَلَيْسَ الْعَاقِلُ الْوَاعِي مَنْ يَعْمَلُ نَفْسَهُ مِمَّا يَضُرُّهَا، فَيَحْفَظُ النَّفْسَ عَمَّا تُؤْتِمُّ، وَذَلِكَ بِتَرْكِ الْمَحْظُورِ وَبَعْضِ الْمُبَاحَاتِ؟ لِمَا رُوِيَ عَنْهُ ﷺ: "إِنَّ الْخَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ". (1)

وَعَلَيْهِ، يَكُونُ وَعْيُ الْإِنْسَانِ سَلِيمًا نَتِيجَةَ فَلَترَةِ التَّصَوُّرَاتِ الذِّهْنِيَّةِ الَّتِي سَتَّحَوَّلُ إِلَى أَفْكَارٍ وَمَفَاهِيمٍ وَمُعْتَقَدَاتٍ لِأَحِقًا.

إِنَّ مُحَاسَبَةَ النَّفْسِ فِي خُلُوةٍ مَعَهَا تُطَهِّرُهَا مِنْ هَوَاهَا؛ لِأَنَّ النَّفْسَ عَدُوٌّ مُنَازِعٌ، يَجِبُ مُجَاهَدَتُهَا لِتَرْوِيضِهَا وَدَفْعِ هَوَاهَا عَنْ رُكُوبِهَا، وَتَدَبُّرِ عَاقِبَةِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ. لِنَقُولَ عِنْدَهَا أَنَّنَا فِي حَالَةٍ بِنَاءٍ مَنْظُومَةٍ الْوَعْيِ. فَفِي الْخَبَرِ أَنَّ ﷺ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي". فَقَالَ: "أَمْسِنُوصِ أَنْتَ؟" فَقَالَ: "نَعَمْ". قَالَ: "إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ، فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَأْمُضِهِ، وَإِنْ كَانَ غِيًّا فَانْتَهَ عَنْهُ."

(1) رواه بخاري برقم (52).

فَعِنْدَمَا يَتَدَبَّرُ الْإِنْسَانُ عَاقِبَةَ إِقْدَامِهِ لِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ بِهِ هَلَكَتُهُ، يَنْتَهِي عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ عَقَلَ نَتَائِجَ الْعَاقِبَةِ. وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: "الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ". (1)

وَالصَّمْتُ يُنْجِي. وَقِيلَ: "مَنْ تَصَدَّرَ قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ، كَانَ كَمَنْ تَدَيَّبَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَصَّرَمَ". فَالْسُّكُوتُ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ وَحِفْظٌ مَاءِ الْوَجْهِ. وَعَلَيْهِ، فَعِنْدَمَا يَتَمَيَّرُ الْفَرْدُ بِبِقِطَّةِ ذَاتِهِ وَوَعِيهِ، يَضَعُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ: مَا عِنْدِي صَحِيحٌ وَيَحْتَمِلُ الْخَطَأَ، وَمَا عِنْدَ الْآخَرِ خَطَأٌ وَيَحْتَمِلُ الصَّوَابَ.

وَبِالنَّفْوَى النَّجَاةُ... النَّجَاةُ. فَمَنْ كَانَتْ النَّفْوَى تُحِيطُ بِوَعِيهِ، ارْتَفَعَ وَسَمًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. وَالنَّفْوَى هِيَ: "الذَّافِعُ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، الرَّادِعُ عَنِ كُلِّ شَرٍّ". (2)

وَعَلَيْهِ، بِاسْتِقَامَةِ النَّفْسِ وَطَهْرِهَا وَتَرْكِيَّتِهَا، تَبْتَعِدُ عَنِ رَجْسِ الْهَوَى. عِنْدَهَا تَسْتَسَلِمُ النَّفْسُ لِبَارِيهَا، وَتَخْضَعُ لِصَابِطِهَا الْعَقْلِيِّ، لِلطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، فَيَكُونُ هَوَاهَا رَبَّ الْعِبَادِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۗ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163]. لِأَنَّ أَوْلَى مَهَامَ الْعَقْلِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْبَدَائِلِ وَأَخْذُ الْأَفْضَلِ.

إِنَّ ارْتِبَاطَ الْأَعْمَالِ بِالْمُعْتَقَدِ الْإِيمَانِيِّ ارْتِبَاطًا طَرْدِيًّا، لِهَذَا تَنْتَسِرَبُ الْقُلُوبُ مَحَبَّةَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهَا حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

هَذَا مَا أَوْعَاهُ الْفَرْدُ فِي قَلْبِهِ مِنْ مُعْتَقَدَاتِ نُورَانِيَّةٍ. فَعِنْدَمَا يَتَشَابَكُ الْأَفْرَادُ دَاخِلَ النَّسِيجِ الْمُجْتَمِعِيِّ، يَتَّجِهُونَ لِعَمَلِيَّةِ التَّكْدِيسِ وَالتَّرَاصِصِ الَّتِي تُكَوِّنُ جِدَارًا أَصْلَبَ،

(1) أخرجه الترمذي برقم (2459) وأحمد في مسنده.

(2) أضواء البيان للشنقيطي ص (1879).

وَيَكُونُ أَفْرَادَهَا كَالْأَلْمَاسِ الَّذِي يُضِيءُ نَتِيجَةً عَمَلِيَّةَ الْإِنْكَسَارِ الضَّوئِيِّ. وَشَتَانٌ مَا بَيْنَ الْفَحْمِ وَالْأَلْمَاسِ.

- الْفَحْمُ: مِنْ أَشْبَاهِ الْمَعَادِنِ، يَمْلِكُ ذَرَّاتِ كَرْبُونٍ، شَكْلُهُ أَسْوَدٌ، سَهْلُ التَّفْتِيَتِ.
- الْأَلْمَاسُ: مُتَكَوِّنٌ مِنْ سِتِّ ذَرَّاتِ كَرْبُونٍ، لَكِنَّهَا مَضْعُوطَةٌ أَنْضِغَاطًا شَدِيدًا، مِمَّا أَعْطَاهَا لَمَعَانًا وَبَرِيقًا عِنْدَمَا تَرَاصَّتْ مَعًا.

هَكَذَا هُوَ الْمُجْتَمَعُ: عِنْدَمَا يَتَرَاصُّ أَفْرَادُهُ وَيَنْضَوُونَ تَحْتَ مِظْلَةِ الدَّوْلَةِ، بِلَا نِزَاعَاتٍ وَخُصُومَاتٍ. كُلُّهُمْ تَحْتَ مَسْئُولِيَّةِ الدَّوْلَةِ، يَعْرِفُونَ حُقُوقَهُمْ وَوَاجِبَاتِهِمْ تِجَاهَ خَالِقِهِمْ وَتِجَاهَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ. عِنْدَهَا الْكُلُّ يَتَّجِهُ إِلَى الْبِنَاءِ وَالْإِعْمَارِ عَلَى كُلِّ الْمُسْتَوِيَّاتِ.

أَسْئَلَةٌ:

- لِمَاذَا يُصَنَّفُونَ الْوَعْيَ الْمُجْتَمَعِيَّ ثَقَافَةَ الْمُجْتَمَعِ أَوْ حَضَارَةً؟
 - مَنْ هُوَ الْمُتَقَفُّ، وَمَا هِيَ الثَّقَافَةُ؟ وَلِمَاذَا يَفْصِلُونَ الثَّقَافَةَ عَنِ الْمُعْتَقَدِ؟
 - هَلْ صَحِيحٌ أَنْ بِنَاءَ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ بِحَاجَةٍ لِمَنْظُومَتَيْنِ: فِكْرِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ؟
 - مَا نَتَائِجُ التَّغْيِيرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى سُورِيَا؟
 - مَنْ يَتَحَمَّلُ رِعَايَةَ الْمُجْتَمَعِ؟ مَنْ الْمَسْئُولُ؟ مَاذَا تَعْنِي كَلِمَةُ الْمَسْئُولِيَّةِ؟
- تَعَالَوْا مَعًا نَتَابِعُ...

الفصل الثاني قيم المسؤولية

السؤال المهم: ما معنى الثقافة بدايةً؟

لسان العرب: يقال: ثقفت الشيء، أي سرعته التعلم. وأكثر القواميس تجتمع على أن: ثقفت ثقافة، صار حازماً. وثقفت الكلام: فهمه بسرعة.

هنا ندخل إلى معنى الوعي الذاتي، وما يسمى اصطلاحاً "الذات"، وهي رؤية إدراكية متراكبة من المعارف والعلوم والتجارب، يستثمرها الفرد في داخله بثقة نفسه وبذاته فيما يستوعبه من مفاهيم ثقافية. وهذا لا بأس به. أما أن يعنر بنفسه، فقد أضاع نفسه.

هنا أثر المجتمع في تشكيل عقلية الفرد بمفاهيم ومعلومات تساعد على عملية الاجتماع الإنساني. والاجتماع الإنساني لا يتم دوره إلا بإتخاذ منظومة الفكر والمفاهيم مع منظومة العمل، ونعتبرها بدوراً ثقافية تميز المجتمع وتُعطيه الخصوصية.

ومنظومة الفكر والمفاهيم أساسها الكلمة، وهي البذرة التي زرعت لعشرات الآلاف من السنين. عندما اخترعت الكتابة، أصبح لدينا نبذة عن التطور بسبب التراكم المعرفي، والأشعار، والأمثال، والقصص؛ أي وجود التاريخ مكتوباً؛ لأن الكتابة هي نوع من أنواع الذاكرة. قال ﷺ: "دُونُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ".

وأعظم الكتب المعجزة على الإطلاق هو القرآن الكريم. أراد الله ﷻ بهذا القرآن أن تحفظ اللغة العربية وقوتها، بمفرداتها التي تفوق اثني عشر مليون كلمة.

ومعرفة الأسماء لا تحصل إلا بمعرفة المسمى، وحصول صورته في العقل، أي صور المسميات في ذواتها. وقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ

سَمَّيْتُمُوهَا) [يوسف: 40]، أَي أَنَّ الْأَسْمَاءَ الَّتِي تَذْكُرُونَهَا لَيْسَتْ لَهَا مُسَمَّيَاتٌ. وَالْكَلِمَةُ لَهَا مَعْنَى وَمُسَمَّى، تَتَحَوَّلُ إِلَى صَوْرٍ ذَهْنِيَّةٍ، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ إِلَى مَعْلُومَةٍ، ثُمَّ فِكْرَةٍ، ثُمَّ مَفَاهِيمٍ تُوعَى فِي الْقَلْبِ، لَكِنَّهَا تَسْتَقِرُّ وَتُصْبِحُ مُعْتَقَدًا.

هَذِهِ الْبُذُورُ الَّتِي زُرِعَتْ فِي أَرْضٍ خَصْبَةٍ طَيِّبَةٍ تَأْتِي بِثَمَارٍ طَيِّبَةٍ. وَإِنْ وُضِعَتْ وَزُرِعَتْ فِي أَرْضٍ قَاحِلَةٍ، تُؤْتِي أَكْلَهَا ثَمَارًا خَبِيثَةً. وَعَلَيْهِ، فَمَفْهُومُ الثَّقَافَةِ وَتَنَوُّعُهَا الْاجْتِمَاعِيُّ وَالْاِقْتِصَادِيُّ وَالْإِنْسَانِيُّ مَمْرُوجٌ بِالْعُرْفِ وَالْعَادَاتِ، مَمْرُوجٌ بِقِصَصِ التَّارِيخِ وَالْأَمْثَالِ كُلِّهَا. ثُمَّ تَأْتِي فِي الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَّةِ:

مَنْظُومَةُ الْعَمَلِ بِحَاجَةِ لِكُلِّ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ لِلْعَمَلِ بِكَافَّةِ الْإِتِّجَاهَاتِ لِتَتِمَّ عَمَلِيَّةُ الْإِنْتِاجِ، لِكَيْ تَتَدَمَّجَ كُلُّ الْمَنْظُومَاتِ فِي بُوْتَقَةِ الثَّقَافَةِ الَّتِي يَعْيِبُهَا الْفَرْدُ وَالْمُجْتَمَعُ. وَالْكُلُّ يُحَاوَلُ التَّجْدِيدَ وَالْإِبْدَاعَ لِدَفْعِ عَجَلَةِ النُّهُوضِ الثَّقَافِيِّ وَرَوَافِدِهِ مِنَ الْفِكْرِ وَالْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالذِّبْنِيَّةِ، فَتَنْدَفِقُ لِيَنْسَكَلَ نَهْرُ الثَّقَافَةِ الْجَارِفِ، يُحَدِّدُ اسْمَهُ وَعُنْوَانَهُ الثَّقَافِيِّ لِأَيِّ مُجْتَمَعٍ، وَيُسَمُّونَهُ الْحَضَارَةَ، أَوْ ثَقَافَةَ وَقِيمَ مُجْتَمَعٍ كَذَا. هَذَا الَّذِي يَحْصُلُ فِي دَاخِلِ مُجْتَمَعِنَا السُّورِيِّ الْيَوْمَ مِنْ حَالَةٍ تَعْيِيرٍ.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد: 11]. وَبِفَضْلِ مَنْ اللَّهُ ﷻ، انْقِلَابٌ كَامِلٌ عَلَى كُلِّ الْمَفَاهِيمِ الْمُتَعَفِّفَةِ الْمُثْبِتَةِ لِلْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَ عَلَى اللَّامْبَالَاةِ فِي تَحْمُلِ الْمَسْئُولِيَّةِ.

بِهَذَا التَّعْيِيرِ، أَصْبَحَ عَلَى أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ أَنْ يَشْعُرُوا بِالْمَسَاوَاةِ فِي الْوَاجِبَاتِ وَالْحُقُوقِ، يَحْمِلُونَ هَمَّ الْمُجْتَمَعِ. شَعَرُوا بِإِنْتِمَائِهِمْ لِهَذِهِ الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ، وَشَعَرُوا بِالْمَسْئُولِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالذِّبْنِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَالْقَانُونِيَّةِ لِيَقْظَةَ وَعِيْهِمُ الْمُجْتَمَعِيِّ، فَازْدَادُوا التَّرَامًا بِالِاسْتِقَامَةِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ. نَعَمْ، نَقَدُوا الْقَانُونَ الْإِلَهِيَّ الَّذِي يُحَدِّدُ لَنَا مَسَارَاتِ الْفُوزِ وَالنَّجَاحِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالْإِنْسَانِيِّ وَالْثَّقَافِيِّ وَالذِّبْنِيِّ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2]. الْكُلُّ يَعْرِفُ وَاجِبَهُ

وَيَعْرِفُ حُقُوقَهُ وَحُقُوقَ الْآخَرِينَ. إِنَّهَا فَيِّمٌ سُلُوكِيَّةٌ وَأَسْلُوبُ حَيَاةٍ. وَالْمَسْئُولِيَّةُ تَقَعُ عَلَيْكَ أَنْتَ فِي إِعْلَاءِ شَأْنِكَ وَشَأْنِ مُجْتَمَعِكَ. هَكَذَا تُبْنَى الْأَوْطَانُ وَالْمُوَاطَنَةُ، وَهَكَذَا تُبْنَى مَنْظُومَةُ الْوَعْيِ وَهَنْدَسَتُهُ بِأَفْضَلِ السُّبُلِ عِنْدَمَا تَتَأَلَّفُ الْقُلُوبُ. ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63].

انظروا كَيْفَ تَمَّ تَأْلِيفُ قُلُوبِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. بَنَوْا أَوَّلَ مُجْتَمَعٍ تَسْوَدُهُ الْمَحَبَّةُ وَالِاخْتِرَامُ وَالْعَدْلُ. الْكُلُّ يَفُومُ بِوَاجِبِهِ وَيَأْخُذُ حُقُوقَهُ غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ، فَارْتَقَى وَسَمًا. فَكَانَ الْمُعْتَقَدُ الْقَلْبِيُّ هُوَ صُنْدُوقُ النَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، لِمَا فِيهِ مِنْ غُلُومٍ رَاسِخَةٍ، وَخَاصَّةً الْإِيمَانَ بِاللَّهِ ﷻ، وَبِهِ اسْتِنَارَ الْقَلْبُ ضِيَاءً وَنُورًا.

لَكِنْ لَا بُدَّ لِهَذَا الْمُجْتَمَعِ مَنْ أَنْ يَحْمِلَ رِعَايَتَهُ وَمَسْئُولِيَّتَهُ، وَهَذَا يَكْمُنُ الْمَعْنَى الْعَظِيمُ لِلْمَسْئُولِيَّةِ. فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ". تَرَسِيخٌ وَاضِحٌ لِمَبْدَأِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْأَسْرِيَّةِ وَالْمُجْتَمَعِيَّةِ، كَأَنَّهَا وَحْدَةٌ وَاحِدَةٌ. الْمَسْئُولِيَّةُ الْفَرْدِيَّةُ هِيَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ مُنْذُ التَّكْلِيفِ. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]. نَفَهُمْ مَعْنَى "الْمَسْئُولِ" وَ"الرَّعِيَّةِ" فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا الْحَدِيثُ اخْتَصَرَ كُتُبَ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ، عَلَى عَكْسِ مَا قَالَهُ عَبْدُ النَّاصِرِ فِي الْعِيدِ الذَّهَبِيِّ لِجَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ أَمَامَ الطُّلَّابِ وَالْأَسَاتِذَةِ قَائِلًا: "إِنِّي جِئْتُ لِأَضَعَ عَلَى كَاهِلِكُمْ مَسْئُولِيَّةَ الْمُسْتَقْبَلِ". وَالْأَصْحَحُ أَنْ تَقُولَ: "إِنِّي جِئْتُ لِأَضَعَ عَلَى كَاهِلِكُمْ وَكَاهِلِي تَحْمِلَ مَسْئُولِيَّةَ الْمُسْتَقْبَلِ".

إِذَا، الْمَسْئُولِيَّةُ هِيَ عَهْدٌ بَيْنَ الْمَسْئُولِ وَرَعِيَّتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ. إِنَّهُ خَادِمٌ لَهُمْ، عَلَيْهِ بِالْقِيَامِ بِوَاجِبِهِ تَجَاهَهُمْ، وَإِعْطَائِهِمْ حُقُوقَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ، وَعَمَلِ وَاجِبِهِ لَهُمْ بِالْكَامِلِ. وَهَذَا الْعَهْدُ بِحَاجَةٍ لِثَلَاثِ ثَوَابِتٍ: هِيَ الثِّقَةُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّبَاتُ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ. وَالنَّصْرُ قَادِمٌ بِإِذْنِ اللَّهِ. ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250]. إِذَا، الْمَسْئُولِيَّةُ عَلَى مَا

اِحْتَوَتْهُ مَنْظُومَةُ الْوَعْيِ الْمُجْتَمِعِيِّ مِنْ أَفْكَارٍ وَمَفَاهِيمٍ مُتَضَمِّنَةٍ مَعْنَى الْمُسَمَّيَاتِ
لِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَشْيَاءِ، فَتَدْخُلُ كُلُّ الْمَحَاوِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ
وَالتَّارِيخِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ فِي مَحْرَابِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُجْتَمِعِيَّةِ، لِتُظْهَرَ لِأَجْفًا أَلْوَانًا
فُسَيْفَسَانِيَّةً، يُنَادَى الْمُجْتَمَعُ بِهَا، فَيَصْطَبُغُ بِلَوْنٍ وَطَعْمٍ مُجْتَمِعِيٍّ يُرِيدُ النِّقْدَ
وَالْإزْدِهَارَ الْحَضَارِيَّ وَالتَّقَافِيَّ، وَيَطْوِي حَالَةَ الْإِنْجِدَارِ وَالتَّرَاجُعِ وَالْقَهْرِ. هُمْ
يُسَمُّونَهُ تَقَافَةَ الْمُجْتَمَعِ، وَنَحْنُ نُسَمِّيهِ الْمُعْتَقَدَ. هُمْ يُرِيدُونَ لَنَا تَقَافَتَهُمْ! لَكِنَّ هَذَا
مُعْتَقَدُنَا، وَلَا يُمْكِنُ الْمَسَاوَمَةُ عَلَيْهِ وَلَا تَبْدِيلُهُ وَلَا تَحْرِيفُهُ. إِنَّهُ مَنبَعُ حَيَاتِنَا وَشَرْفُنَا
وَفِكْرُنَا وَعَمَلُنَا وَعِلْمُنَا. إِنَّهُ يَنْبُوعٌ لَا يَنْضُبُ مِنَ الْمَبَادِيِ الَّتِي زُرَعَتْ فِي وَعَيْنَا
وَسَكَنتْ فِي قُلُوبِنَا وَالتَّحَمَّتْ بِهِ، فَلَا يَنْزِعُهَا كَائِنٌ مَن كَانَ. حُسْنُكُمْ أَنْتُمْ وَجَبْرُكُمْ
وَأَسَاطِيلُكُمْ وَمَكْرُكُمْ وَمُؤَامِرُكُمْ فِي نَزْعِ مَا اسْتَوَدَعَهُ اللَّهُ ﷻ فِي قُلُوبِنَا وَعُقُولِنَا.
﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾
[الأنعام: 162-163]

عِنْدَهَا تَظْهَرُ فِي الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ يَقْظَةُ فِكْرِيَّةٌ نَتِيجَةٌ يَقْظَةُ الْوَعْيِ الْمُجْتَمِعِيِّ
فِي أَعْلَى مَرَاتِبِهِ، الْمُتْرَسِّخَةِ فِي قُلُوبِنَا، مُعْتَقَدِنَا، مَمْرُوجَةٌ بِالْحِكْمَةِ وَالرُّشْدِ فِي
الْقَوْلِ وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ. عِنْدَهَا جَمِيعُ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ تَنْطِقُ بِالْإِحْسَانِ. فَتَعَالَوْا
مَعًا لِلْإِجَابَةِ عَلَى هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ الْمَطْرُوحَةِ:

➤ مَاذَا تَنْمُرُ هُنْدَسَةُ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي تَرَسَّخَ فِي الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ؟

➤ مَنْ هُمْ أَهْلُ الرُّشْدِ؟

➤ مَنْ هُمْ أَهْلُ الْحِكْمَةِ؟

➤ إِذَا التَّقَيْنَا أَهْلَ الرُّشْدِ وَأَهْلَ الْحِكْمَةِ، مَاذَا سَيَحْصُلُ؟

➤ مَاذَا يَعْني الْإِحْسَانُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؟

تَعَالَوْا مَعًا...

الباب السابع

تعاريف منظمة الوعي

الفصل الأول

نتائج يقظة منظومة الوعي

تعمد أساساً على نتائج الفكر ليكون وقوداً فعلاً لعملية الوعي الذاتي. وتنمية الفكر لا يقاس مطلقاً بالقراءة، ولو أن القراءة من أهم عوامل تنمية الفكر، لكن الأهم في نوعية المعلومات المستجبة وتركيزها في إنماء الوعي الذاتي.

وهنا لا بد من أن ندخل في موضوع نوعية العلوم والمعارف لرفع يقظة منظومة الوعي. فيقدر عقل المرء تكون عبادته، فالإسلام دين العقل، باعتداده على العلم والحجة والبرهان، يقدم التساؤلات لتصل إلى الفهم والوعي العميق، لكي تتبلور جميعها لإنتاج فكر سليم. قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9].

لأن المرء عدو ما جهل، والمرء العاقل جامع لأمره ورأيه. فالارتقاء بفضائل العلم والأخذ بأحسن أنواع العلم يدفع عن نفسه ردائل الجهل. وأعظم العلوم هي القرآن الكريم الذي أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ. فيه علوم التوحيد وصفات الله ﷻ، وهو تبيان لكل شيء. فيه أشرف العلوم وأنفعها، فنبت الفكر الصائب، وبه يرتفع مقام العبد عند ربه. قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11]. هو نور من الله. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: 174]

لأن هذا العلم هو الباعث على العمل وروح العلم هو العمل. عندها يرتفع مقام الوعي بما أوعي به من العلوم. والعاقل من أيقن أن عليه أن يرتقي بعلمه ووعيه ليكون من أهل الحكمة والرشاد والإحسان، وهي ثمار ونتائج يقظة لأن

هَذَا الْعِلْمَ هُوَ الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ، وَرُوحُ الْعِلْمِ هُوَ الْعَمَلُ. عِنْدَهَا يَرْتَفِعُ مَقَامُ
الْوَعْيِ بِمَا أُوْعِيَ بِهِ مِنَ الْعُلُومِ. وَالْعَاقِلُ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرْتَقِيَ بِعِلْمِهِ وَوَعْيِهِ
لِيَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْحِكْمَةِ وَالرَّشَادِ وَالْإِحْسَانِ، وَهِيَ ثِمَارٌ وَنَتَائِجُ يَقْظَةِ الْوَعْيِ.
فَالْعَاقِلُ عَلَيْهِ أَنْ يَعِي وَيَفْهَمَ أَنَّ التَّعْلَّمَ يَبْدَأُ مِنَ الطُّفُولَةِ إِلَى الْكُهُولَةِ، وَلَا مَانِعَ أَنْ
تَكُونَ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ. وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: "إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعْلَمِ". (1)

وَقَالُوا: "الْمُزَاوَلَاتُ تُعْطِي الْمَلَكَاتُ. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ مَنْ زَاوَلَ شَيْئًا وَاعْتَادَهُ
وَتَمَرَّنَ عَلَيْهِ، صَارَ مَلَكَةً لَهُ، وَسَجِيَّةً وَطَبِيعَةً". (2)

فَهَنِيئًا لِحَامِلِ هَذِهِ الْعُلُومِ، وَهَنِيئًا لِمَنْ أُوْعِيَ مَعْنَى الْحَيَاةِ، فَكَانَ حَكِيمًا فِي
قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، رَشِيدًا فِي تَصَرُّفَاتِهِ، مُحْسِنًا فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ. عِنْدَهَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِ
الْوَقَارِ وَالْعِزَّةِ؛ لِأَنَّهُ أَلْبَسَ نَفْسَهُ الْحِكْمَةَ وَالرَّشَادَ، وَمَشَى فِي دَرَبِ الْإِحْسَانِ.

تَعَالَوْا نَقْرَأُ الْمَزِيدَ... تَعَالَوْا...

(1) سنن الدارقطني.

(2) ابن قيم: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص (18).

الفصل الثاني أَهْلُ الْحِكْمَةِ (1)

قَالَ تَعَالَى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) [البقرة: 269].

فَرَأْسُ الْحِكْمَةِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ ﷻ.

الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل.

الْحِكْمَةُ: مَصْدَرٌ مِنَ الْإِحْكَامِ، وَهُوَ الْإِتْقَانُ فِي قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ. فَكِتَابُ اللَّهِ حِكْمَةٌ، وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ حِكْمَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ" فَقِيلَ: هِيَ الْعِلْمُ، وَقِيلَ: الْفَهْمُ، وَقِيلَ: الْإِصَابَةُ فِي الْقَوْلِ. وَلَا مَانِعَ مِنَ الْحَمْلِ عَلَى الْجَمِيعِ شُمُولًا أَوْ بَدَلًا. وَقِيلَ: إِنَّهَا التُّبُوَّةُ، وَقِيلَ: الْعَقْلُ، وَقِيلَ: الْحَشِيَّةُ، وَقِيلَ: الْوَرَعُ. وَأَصْلُ الْحِكْمَةِ مَا يَمْنَعُ مِنَ السَّفَهِ - وَهُوَ كُلُّ قَبِيحٍ (2) - وَقِيلَ عَنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ: "الصَّمْتُ حُكْمٌ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ".

فَالْحِكْمَةُ إِذَا: فِعْلٌ مَا يَنْبَغِي، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي، قَوْلًا وَفِعْلًا. وَعَيْنُ الْحِكْمَةِ: وَضْعُ الْأَشْيَاءِ فِي مَكَانِهَا قَوْلًا وَفِعْلًا.

وَلِلْحِكْمَةِ ثَلَاثَةُ أَرْكَانٍ:

1. الْعِلْمُ.

2. الْحِلْمُ.

3. الْأَنَاءَةُ.

(1) د. ماهر جميل بابزيد: كتاب بين العقل والقلب الإعجاز المبين، (من ص 318 حتى 321) بتصرف.

(2) فتح القدير للشوكاني، ج 1 ص 89.

وَأَفَاتَهَا وَأَضْدَادُهَا: الْجَهْلُ، وَالطَّيْشُ، وَالْعَجَلَةُ. سُئِلَ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ: "مِمَّنْ تَعَلَّمْتَ الْحِكْمَةَ؟" قَالَ: "مِنَ الْجُهَلَاءِ؛ فَكُلَّمَا رَأَيْتُ فِيهِمْ عَيْبًا تَجَبَّبْتُهِ". (1)

سُبْحَانَهُ! مَا أُعْطِيَ إِلَّا بِحِكْمَتِهِ، وَلَا مَنَعَ إِلَّا بِحِكْمَتِهِ، وَلَا أَضَلَّ إِلَّا بِحِكْمَتِهِ. فَالْحِكْمَةُ كَالشَّجَرَةِ تَنْبُتُ بِالْقَلْبِ، وَثَمَارُهَا حِكْمٌ عَقْلِيَّةٌ، وَطَعْمُهَا فِي لِسَانِ صَاحِبِهَا. وَأَهْلُ الْحِكْمَةِ يَتَمَيَّزُونَ بِالْهُدُوءِ النَّفْسِيِّ وَالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، وَعَدَمِ لَفْتِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ دُونَ الْعُزْلَةِ، بَلْ هُمْ فِي مُحَالَطَةِ مَعَ النَّاسِ، لَكِنَّ صَمْتَهُمْ يَطْعَى عَلَى تَصَرُّفَاتِهِمْ. أَهْمُ طُرُقِ الْوُصُولِ إِلَى الْحِكْمَةِ: أَنَّهَا هِبَةٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَمِنْهَا اكْتِسَابٌ نَتِيجَةٌ تَرَكَمُ الْخَبَرَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَتَقُودُ صَاحِبَهَا إِلَى إِجَادِ الْحَلِّ وَالرَّبِطِ وَالرَّرَانَةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَإِعْطَاءِ الرَّأْيِ فِي حَلِّ الْمَشَاكِلِ، وَأَخْذِ الْقَرَارَاتِ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ فِي مَكَانِهَا الْمَحَدَّدِ.

فِي الْخِتَامِ، عَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَعْلَمُهَا النَّاسُ". (2)

(1) ابن القيم: تهذيب مدارج السالكين، ص (435 - 437) بتصرف.

(2) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (كتاب العلم) برقم (73).

الفصل الثالث

أهل الرشد

المرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه. والرشد من الرشاد، وهي الصخرة. هم الذين يحملون العقول الرشيدة الخالصة من الشوائب، القوية كالصخرة، تدافع عن الحق لتَهْزَمَ الباطل. إنهم أهل التقوى الذين يحبون الإيمان ويستميئون في حماية إيمانهم، ويكرهون الفسق والمعصية، وهم في حالة دائمة لمراجعة فكرية لكل صغيرة وكبيرة لأفعالهم وأقوالهم. لذا قيل: "الرشد خلاف العي". (1)

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].

الراشدون: هم الذين استقاموا وعرفوا سبيل الحق.

أي حُبب الإيمان إلى نفوسكم، وحسن في قلوبكم، وبغض إليكم الكفر والفُسُوق – وهي الذنوب الكبار – والعصيان – وهي جميع المعاصي – وهذا تدرج لكمال النعمة: "أولئك هم الراشدون"، أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين آتاهم الله رشدهم. (2)

أهل الرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم. والرشد هو حسن التصرف، ولذلك سمي حسن التصرف عقلاً؛ لأن الإنسان عقل تصرفه فيما ينفعه. والراشد هو المهتدي إلى أحسن الأمور في القول والعمل. والرشد إصابة عين الحقيقة، وهو الطريق المستقيم. وقيل: "اللبيب من الإشارة يفهم".

(1) د. ماهر جميل بايزيد، بين العقل والقلب الإعجاز المبين (من ص 315 – 320) بتصرف.

(2) تفسير مختصر ابن كثير للصابوني، ج3، ص (358).

الفصل الرابع أَهْلُ الْإِحْسَانِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]

فَإِنَّ الْعَدْلَ هُوَ الْمَسَاوَاةُ فِي الْمَكَافَاةِ: إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. أَيُّ لَا يُوجَدُ مَسَاوَاةٌ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ. وَالْإِحْسَانُ: أَنْ يُقَابَلَ الْخَيْرُ بِأَكْثَرِ مِنْهُ، وَالشَّرُّ بِأَقَلِّ مِنْهُ. (1)
كَقَوْلِ عَلِيٍّ (كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ): "الْعَدْلُ الْإِنْصَافُ، وَالْإِحْسَانُ التَّفَضُّلُ".

فَالْإِحْسَانُ زَائِدٌ عَلَى الْعَدْلِ، فَتَحَرَّى الْعَدْلَ وَاجِبًا، وَتَحَرَّى الْإِحْسَانَ نَدْبًا وَتَطَوُّعًا. لِذَلِكَ عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ. هُوَ لِأَنَّ هُمْ أَهْلُ الْعُقُولِ الرَّشِيدَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 13] (2)

فَأَمَرَنَا اللَّهُ بِالْقَوْلِ الْحَسَنِ لِلنَّاسِ، وَحَصَّ الْوَالِدَيْنِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: 83].

وَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا بَيْنَ الْعَدْلِ (الْإِنْصَافِ) وَالتَّفَضُّلِ بِالْإِحْسَانِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] - فِيهَا عَدْلٌ - ثُمَّ دَعَا إِلَى الْإِحْسَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: 40].

(1) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص (329).

(2) المرجع السابق، ص 126.

هُؤُلَاءِ أَهْلُ الرُّشْدِ هُمْ الْإِحْسَانُ، نُفُوسُهُمْ طَيِّبَةٌ كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، تُعْطِي الظِّلَّ لِمَنْ جَلَسَ بِقُرْبِهَا، وَتَشْعِرُهُ بِالْأَمَانِ وَرَاحَةِ الْبَالِ. إِنَّهُمْ الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ: (وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ)، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَىٰ إِنْفَازِهِ، مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا". (1)

لَيْسَ عَنِ ضَعْفٍ، بَلْ يَقْدِرُ عَلَىٰ إِنْفَازِهِ، لَكِنَّهُ كَظَمَ وَعَفَا عَنِ عِزِّ وَرَفْعَةٍ. قَالَ صلى الله عليه وسلم: "وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ". (2)

الْمِظَلَّةُ الَّتِي تَحْكُمُ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ هِيَ الْإِحْسَانُ. وَهَذَا مَا سَأَلَهُ رَسُولُنَا صلى الله عليه وسلم لِجَبْرِيلَ. قَالَ: "فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ". قَالَ: "الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ". (3)

إِذَا، الْإِحْسَانُ فَرِيضَةٌ مَكْتُوبَةٌ فِي كُلِّ تَحْمَلٍ نَقُومُ بِهِ. فَهُوَ أَسَاسُ الْعِبَادَاتِ التَّعَامَلِيَّةِ: مَعَ الْأَهْلِ وَالْأَقْرَابِ، فِي الْعَمَلِ، فِي تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ، مَعَ الْحَيَوَانَ... فِي كُلِّ مَنَاجِي الْحَيَاةِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ". (4)

وَإِتْقَانُ الْعَمَلِ – أَيُّهَا الطَّيِّبُ النَّافِعُ – مَرْهُونٌ بِكَ يَا صَاحِبَ الْعَقْلِ.

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) [الإسراء: 7].

(1) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج1، ص (318).

(2) رواه مسلم برقم (2588).

(3) رواه البخاري برقم (50)، جزء من الحديث.

(4) رواه البخاري، جزء من الحديث.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ يَكُونَ مَا أَوْعَيْنَاهُ فِيمَا تُحِبُّ وَتَرْضَاهُ. وَتَقَبَّلَ مَا كَتَبْتُهُ،
وَاجْعَلْهُ فِي مِيزَانِ أَعْمَالِي.

آمِينَ.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

أخوكم د. ماهر بايزيد

في 2026/6/6

الفهرس

7المُقَدِّمَةُ
9الباب الأول: العقل المسموع
11الفصل الأول: بَوَابُ الْعَقْلِ الْإِدْرَاكِيِّ
13الفصل الثاني: الوَعْيُ الْعَقْلِيُّ
19الفصل الثالث: انْهِيَارُ الوَعْيِ نَتِيجَةَ انْهِيَارِ الْأَخْلَاقِ
21الفصل الرابع: انْحِدَارُ الوَعْيِ الْأَخْلَاقِيِّ فِي عَصْرِ التَّفَاهَةِ
25الباب الثاني: الطباع الذميمة
27الفصل الأول: أَثَرُ الطَّبَاعِ الذَّمِيمَةِ عَلَى وَعْيِ الْفَرْدِ
37الباب الثالث: فهم الحقائق بالمقلوب
39الفصل الأول: ضَحُّ الْأَفْكَارِ الْمُعْلَبَةِ ظَاهِرُهَا حَسَنٌ وَبَاطِنُهَا فَيِّحٌ
41الفصل الثاني: بَرْمَجَةُ التَّارِيخِ الْمُرَوَّرِ وَإِعَادَةُ بَنِّهِ
46الفصل الثالث: ظُهُورُ جَمَاعَاتِ فِكْرِيَّةٍ يُكْفِرُونَ كُلَّ مَنْ كَفَرَهُمْ
47الفصل الرابع: فَرَضُ قِيَمِهِمُ التَّقَافِيَّةِ وَتَغْيِيرُ خَلْقِ اللَّهِ
50الفصل الخامس: ظَاهِرَةُ قَضْمِ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ
55الباب الرابع: يقظة الوعي الفردي وأثره على المجتمع ..
57الفصل الأول: الوَعْيُ الدَّائِي
62الفصل الثاني: الْقَلْبُ وَمَا أَوْعَى
66الفصل الثالث: اسْتِنْهَاضُ وَتَهْذِيبُ الطَّبَاعِ الْخُلُوقِيَّةِ

الباب الخامس: الركائز الأساسية في بناء منظومة وهندسة الوعي المجتمعي

73

75 الفصل الأول: النَّقْدُ الدَّائِيٌّ وَحُرِيَّةُ الجَوَارِ البِنَاءِ.....

83 الفصل الثاني: إِقَامَةُ العَدْلِ وَنَفْيُ الظُّلْمِ

الباب السادس: المسؤولية الفردية في بناء الوعي 85

87 الفصل الأول: مِيلَادُ وَيَقْظَةُ الوَعْيِ الفَرْدِيِّ.....

93 الفصل الثاني: قِيَمُ المَسْئُولِيَّةِ

الباب السابع: ثمار يقظة منظومة الوعي 97

99 الفصل الأول: نَتَائِجُ يَقْظَةِ مَنظُومَةِ الوَعْيِ.....

101 الفصل الثاني: أَهْلُ الحِكْمَةِ.....

103 الفصل الثالث: أَهْلُ الرُّشْدِ

104 الفصل الرابع: أَهْلُ الإِحْسَانِ.....

الدكتور ماهر جميل بايزيد



- مواليد سوريا اللاذقية 1961
- بكالوريوس في العلوم الطبيعية جامعة اللاذقية (تشرين سابقاً) 1983.
- بكالوريوس في طب الأسنان جامعة سرايفو 1991.
- شهادة البورد في التركيبات السنية 1999.
- مشرف في كلية طب الأسنان جامعة اللاذقية (تشرين سابقاً) من 1992 - 1999.
- عضو الهيئة في جمعية البر والخدمات الاجتماعية باللاذقية.
- صدر كتابه الأول: لبنين منظومتنا الأخلاقية عام 2012.
- صدر كتابه الثاني: بين العقل والقلب الإعجاز المبين عام 2020.
- صدر كتابه الثالث: علم الطباع السلوكي وصراع الإيرادات العقلية عام 2021.
- صدر كتابه الرابع: لبنين منظومتنا الأخلاقية - طبعة منقحة عام 2024.
- صدر كتابه الخامس: إسرائيل أوهن من بيت العنكبوت عام 2025.
- صدر كتابه السادس: هندسة الوعي بين الانحدار والبناء عام 2026.

الكتاب السادس

هذا الكتاب

يبحث عن أهمية الوعي في عقولنا، وكيف يسمو بسمو القيم الأخلاقية التي يحملها هذا الفرد.

شتان بين شخص جميع بواباته الإدراكية تعمل تحت إشراف العقل الواعظ للنفس البشرية، فلا يعي إلا الخير، فيؤرشفه في وعاء قلبه ليتشكل معتقده الذاتي. وبين شخص آخر جميع بواباته الإدراكية تعمل تحت إشراف هواه وشهواته الماجنة، فلا يعي إلا الشر، فيؤرشفه في وعاء قلبه ليتشكل معتقده الذاتي.

تعالوا معاً ندرس هندسة الوعي.

كيف تتشكل منظومة الوعي؟

ما الفرق بين انحدار وبناء الوعي

تعالوا معاً نقرأ لتتعلم



9 789933 945602